ديودور الصقلى في مصر



نقله من اليونانية

وهيب كامل

مُقَدِّمَة

ديودور الصقلى

لم يهمل التاريخ مؤرخا كما أهمل ديودور..

ألـف ديودور الصقلى كتابا فى تاريـخ العالم أو التاريخ العام على حد تعبيره، منذ فجر التاريخ إلى الحملة التى سـار بها يوليوس قيصر على بلاد الغال سنة ٥٨ق.م. وسماه «خزانة التاريخ». وهى مصدرنا الفرد فى استقصاء أخباره وتعرف شخصيته، والوقوف على منازعه وآماله، فقد خلا الأدب القديم من ذكره اللهم إلا النبذة اليسيرة التى أثبتها القديس جيروم فى القرن الرابع بعد الميلاد، إذ قال فى حوادث عام ٤٨ق.م. «ديودور الصقلى مؤرخ يونانى أصبح مشهورا» ولعل من الحكمة أن نقف عند هذا التاريخ باعتباره السنة التى ظهر فيها أول جزء من كتاب ديودور فاشتهر به.

مسقط رأسه مدينة آجريوم من أعمال صقلية، وهى إحدى المدن القديمة فى داخل الجزيرة. وقد زارها هرقل كما قال ديودور [١و٤] وانتشرت فيها عبادته انتشارا لا يضارعه إلا انتشار عبادة الآلهة الأوليمبية.. ويتحقق لدينا قوله إن آجريوم مسقط رأسه من احتفاله بتاريخ هذه المدينة الصغيرة وحرصه على إيراد ما مر بها من حوادث بالتفصيل فى «خزانته».

ولقد عفا التاريخ على آثار هذه المدينة، ولكن شاءت الأقدار أن تبقى منها على حجرين اثنين، نقش على أحدهما اسم ديودور بن آبللونيوس، فهل كان ذلك الحجر شاهدا على قبر المؤرخ؟

أين حصّل ديودور العلم وعلى مَن مِن الأساتذة؟ وكيف اتجه إلى دراسة التاريخ؟ كل هذه أسئلة لا نحير لها جوابا. ولكننا نعلم على وجه التحقيق أنه كان يجمع مادة «خزانته» فى الأوليمبياد الثمانين بعد المائة أى فيما بين عام ٦٠ وعام ٥٦ق.م. وفى هذه الأثناء زار مصر ليصف آثارها ويقف على شيء من تاريخها.

يقول ديودور إنه رأى بعينه أثناء إقامته فى مصر الشعب ثائرا يطالب بموت أحد أعضاء الوفد الرومانى فى مصر لأنه قتل هرة، هذا بالرغم مما كان يستشعره المصريون نحو روما من خوف، وبالرغم من أن بطليموس ملك البلاد لم يكن قد دعى بعد «صديق روما».

ومن المعروف أن بطليموس الحادى عشر قد اعتلى عرش البلاد سنة ٨٠ق.م. وأنه ظل زهاء عشرين عاما مزعزع العرش لأن روما سيدة العالم حينئذ كانت مترددة فى الاعتراف به ملكا للبلاد، ولكن فى عام ٥٩ق.م. اعترفت به روما ملكا بفضل المجهودات السياسية التى بذلها كل من قيصر وبومبيوس، ولكن ليس فى مصادر التاريخ الرومانى أية إشارة إلى ذلك الوفد الذى رأى ديودور أحد أعضائه يثير هذا الشغب الذى أودى بحياته أو كاد.

فإذا رجعنا إلى المؤرخ سيوتونيوس فى ترجمته لحياة قيصر، رأيناه يقرر أن قيصرا قبض من بطليموس هذا مبلغ ستة آلاف طالنط

أو ما يعادل نصف دخل البلاد فى عام، ليضمن له اعتراف روما بشرعية ولايتــه للبلاد، فمن المعقول إذن أن يكون الأمــر قد اقتضى إيفاد بعثة سياسية لدرس حالة البلاد، تمهيدا للاعتراف بالملك. وإن ما نعرفه من شدة حاجة قيصر إلى هذه الأموال، يحملنا على الاعتقاد أنه أوفد البعثة بعد انتخابه قنصلا فى أول يناير سنة ٥٩ق.م. مباشرة.

وإذن فقــد كان ديودور مقيما فى مصر فى عــام ٥٩ق.م. فكم أقام بها؟ لا نســتطيع أن نجزم برأى فى ذلــك. ولكن الظاهر أنه غادر مصر بعد عام ٥٧ق.م. مباشــرة. فقد بدأ فى كتابه «خزانته» فى عام ٥٦ق.م. ونحن نرجح أن يكون قد بدأ كتابه فى بلاده حيث يســتطيع أن ينظر فى مراجعه وأسانيده.

أما أنه بدأ فى كتابة «خزانته» فى عام ٥٦ق.م. فنستنتجه من قوله إن آخر من حكم مصر من الأجانب هم المقدونيون يعنى البطالسة، وأن حكمهم دام ســتا وسبعين ومائتى عام [١و٤]. ولما كان ديودور يقرر إن الإســكندر غزا مصر عام ٣٣١ق.م. [١٧، ٤٩] إذن يكون ديودور قد بدأ كتابة «خزانته» عام ٥٦ق.م.

أمــا آخر الحوادث التى عاصرها ديدور وذكرها فى «خزانته» فهى قوله [١٦، ٧] «إن قيصر يعنى أوجسطس نقل أهل مدينة تورومنيوم من أعمال صقلية من موطنهم وأسكن فيه جالية رومانية» فمتى حدث ذلك؟

يقرر المــؤرخ أبيان فى كتابه «الحــروب الأهلية» [ك٥، ١٠٩] أن هــذه المدينة رفضت أن تفتح لأجســطس أبوابها حين التجأ إليها

فاضطر إلى لقاء سكستوس بومبيوس فى عرض البحر ولم يكن قد اتخذ لذلك أهبته فدُحِر أجسطس وفقد أسطوله ونجا بجلده فى عام ٣٦ق.م. فلــو أن المدينــة فتحت له أبوابها لاعتصم بها، وما أقحم نفســه فى تلك الموقعة، وما خسر هذه الخسارة الفادحة، وهذا يفسر لنا سخطه على المدينة وعقابه لها بما ذكر ديودور. ويذكر ديوكاسيوس فى كتابه «تاريــخ روما» إنه بعد هزيمة ســكتوس بومبى فى عام ٣٦ق.م. عاقب أجسطس كثيرًا من مدن صقلية فلعل تورونيوم كانت من بينهما.

ولكــن المؤرخ ديوكاســيوس يذكر [ك٥٤، ٧] أن أجســطس نظم أمور صقلية فى ســنة ٢١ق.م. ويذهب بعــض المؤرخين المحدثين إلى أن تورومنيوم قد حولت إلى مســتعمرة رومانية فى هذا التاريخ المتأخر. ولكنا لا نتصور أن أجسطس قد انتظر خمسة عشر عاما حتى يعاقب هذه المدينة على ما جنت، ولا نرى أن التنظيم الذى يشير إليه ديوكاسيوس كان يستدعى تحويل المدينة إلى مستعمرة رومانية بحال.

ويقــرر ديــودور [١، ٤] إنه قضى ثلاثين عاما فــى تأليف كتابه «خزانة التاريخ» وهذه الفترة الطويلة تشــمل على الأرجح الســنين التى قضاها فــى رحلاته إلى البلاد التى كتب عنها، وليس من المحتمل أن يكون قد بدأ رحلاته بمصر. بل الأرجح أنه زار روما عاصمة العالم كله حينئــذ قبل زيارته لمصر فى ســنة ٥٩ق.م. وأنه قضى ردحا من الزمن قبل ذلك فى القراءة وجمع المصادر ومراجعة الوثائق. هذا من ناحية...

ومن ناحية أخرى فإن ديودور كما يتجلى فى كتاباته كان شــديد الإعجاب بالإمبراطورية الرومانية مشيدا بمجدها. فليس من المعقول أن

يقول إن المقدونيين آخر من حكم مصر من الأجانب لو أنه عاش إلى سنة ٣٠ق.م. حيـن ضُمت مصر إلـى الإمبراطورية الرومانية. وإذن فقد توفى ديدور فى إحدى السـنين الواقعة بين سنة ٣٦ق.م. وسنة ٣٠ق.م. فإذا أضفنا إلى ذلك أن ديودور لم يشر إلى الصراع بين أنطونيوس وأجسطس، ولا إلى بوادر قيام الحرب الأهلية بينهما، ولا إلى اكفهرار جو السياسة فى العالم الشرقى قبل قيام تلك الحرب، لكان من الطبيعى أن نقول إن ديودور مؤرخ ولد سـنة ٩٥ق.م. وبدأ فى تأليف «خزانة التاريخ» سـنة ٦٥ق.م. ومات سنة ٣٥ق.م. تقريبا. وقد ذكرنا أنه بدأ كتابة «الخزانة» سـنة ٥٦ق.م. والمرجح أنه نشـر الأجزاء التى تمـت بمجرد فراغه من كتابتها [٤، ١]، وهذا يتفق مع ما قاله سـويداس فى القرن العاشـر بعد الميلاد من أن ديودور اشتهر كمؤرخ فى عصر أجسطس بل قبله.



إن العمل الذى تصدى له ديودور هو كما قال تدوين القصص العامة (١ ، ٤) أو الحـوادث العامة [٥، ١] أو هـو بعبارة أخرى كتابة تاريخ العالم منذ بدء الخليقة إلى زمانه.

وإن وصف «عام» شائع مطرد فى كتاباته إلى حد يدفع القارئ إلى التفكيـر فى معنى الكلمة فى ذهنه، وإلى الخـروج من ذلك إلى اكتناه الغرض الذى رمى إليه المؤرخ بتأليف هذا الكتاب.

ففى السـنوات العشـر التى تلـت سـنة ٧٠ق.م. رأى ديودور أن بومبيوس قد أخضع كل شواطئ البحر المتوسط لحكم روما، وكانت مصر

وحدها مستقلة استقلالا صوريا فحسب، فقد كان اعتلاء البطالسة عرش البلاد، رهنا بموافقة مجلس الشيوخ فى روما. وطهر بومبيوس البحر من القراصنة الذين كانوا يعيثون فيه فسادا. وهكذا امتد النفوذ الرومانى إلى أطراف العالم المتمدين حينئذ، أو إلى أقاصى المعمورة كما قال ديودور (١،٤)، واحتفل بومبيوس بهذا الانتصار الباهر على العالم الشرقى فى عام ٦١ق.م. ولعل ديودور قد شاهد هذا الاحتفال العظيم، أو هو سمع وصفه من أفواه الذين رأوه رأى العين.

فقد انتشرت الأعلام معلنة أن بومبيوس قد أخضع أربع عشرة دولة، وأدخل خزانة الإمبراطورية عشرين ألف طالنط، وضاعف -أو كاد- دخل الإمبراطورية السنوى. وبدا للمفكرين فى تلك الأيام كأن روما قد ورثت تاج الإسكندر، وأنها تحمل لواء الرسالة التى وقف عليها حياته، وأن عهدا جديدا من السلام والإخاء والمساواة يكاد يسود العالم تحت راية روما، وأن النظرية الرواقية فى المواطن العالمى توشك أن تتحقق الآن وقد أصبحت الإنسانية تؤلف حضارة عامة واحدة، وجمعية إنسانية عامة، وهكذا أصبح فى وسع مؤرخ مثل ديدور أن يتحدث عن الحياة «العامة» التى تحياها شعوب البحر المتوسط التى صارت الآن مرتبطة أشد الارتباط تحت راية روما.

وإذا كان قولنا «الحضارة الغربية» يفيد حضارات مختلفة أشد الاختلاف فى أيامنا هذه مثل حضارتى الولايات المتحدة وأسبانيا مثلا، فلا ضير أن يتحدث المؤرخ فى سنة ٦٠ق.م. عن حضارة «عامة» تضم حضارات

اليونانيين والسوريين والأسبانيين والرومانيين. فقد امحت أمام جحافل روما حدود «المدينة الحرة» التى كان المواطن غريبا فى كل مكان عداها، وأصبح تاريخ كل شعب محل اعتبار الشعوب الأخرى لأن هذا التاريخ يبين ما عسى أن يضيفه هذا الشعب من تراثه إلى هذه الحضارة العامة.

وإذن فقد كانت الدوافع لكتابة «الخزانة التاريخية» هى نفس الدوافع التى حدت بالكاتب الراحل هـ.ج. ويلز إلى إخراج كتابه «معالم التاريخ» فى أعقاب الحرب العالمية الأولى، إذ اصطدم الناس بمأساة الحرب، فلم يدركوا على وجه التحقيق هل هم يواجهون نكبة جائحة على الحضارة الإنسانية أم هم فى مستهل عهد ذهبى جديد للجمعية الإنسانية، وتعلقوا بالأمل وصار كل مفكر يفكر كما لو كان مواطنا عالميا.

كذلك كان المفكر الرواقى يؤمن بعد الحروب الأهلية بأن إخلاصه لفلسفته يدعوه إلى نشر مبادئه فى وحدة الجنس الإنسانى، خصوصا بعد أن اطمأن إلى أن الخضوع لحكومة واحدة لا يعنى فناء الثقافات المتباينة فى ثقافة الدولة المسيطرة، الأمر الذى قامت روما شاهدا على صحته. وأصبح تأليف التاريخ الإنسانى من وجهة النظر الرواقية رسالة فى إضعاف الروح القومية الجامحة، ووسيلة لإقامة صرح التفاهم بين الأمم بتوطيد الروابط الثقافيد بينها. فلا غرو، وتلك رسالة المؤرخ الرواقى، أن يقرر ديودور أن تأليف تاريخ عام، أمر على أعظم جانب من الأهمية للقارئ المحقق [١، ٣].



ويدَّعي ديودور أنه زار كل الأماكن العظيمة الشأن في أوربا وفي الشرق، وأنه لاقى في هذا السبيل متاعب وأهوالا جساما، ولكن ليس في كتاباته ما يثبت لنا أنه زار بلادا غير روما التي قضى فيها زمنا ما، ووجد فيها كثيرا من المواد الأساسية لدراسته [١، ٤]، ومصر، التي انحدر فيها جنوبا حتى منف. فقد ورد في وصف منف ذكر ضريح لإزيس «يرى إلى وقتنا هذا في حرم معبد هيفا بستوس» [١، ٢٢]. ويذهب البعض إلى أنه زار الأقصر، محتجين على ذلك بأن الدقة التي يمتاز بها وصفه لمعبد الرمسيوم [١، ٤٧] لا تتأتى إلا لشاهد عيان. ولكن إذا كان ديودور نفسه قد عزى الوصف إلى المؤرخ هيكاتيوس، فليس بنا من حاجة إلى افتراض أمر رحلته إلى الأقصر. أما سائر ما ورد في رواياته عن مصر من تفاصيل فقد يكون مستقى من هيرودوت وهيكاتيوس والمؤرخ الجغرافي أجاثار خيديس إلا كنيدى الذي عاش في القرن الثاني ق.م.

ويشير ديودور أحيانا كثيرة إلى الوثائق المصرية الهيروغليفية كأنه اعتمد عليها في إثبات تاريخ البلاد. والواقع من الأمر أنه كان يجهل اللغة الهيروغليفية، فإشاراته إلى النصوص الهيروغليفية مأخوذة من المؤرخ هيكاتيوس.

ونستطيع أن نؤكد كذلك أن ديودور لم يزر بلاد ما بين النهرين لأنه قال إن نينوى تقع على نهر الفرات. ومن حسن الظن به أن ننفي أمر ذهابه إلى أثينا، هذا خير له من أن نقول إنه ذهب إليها ولم يجد في بدائع الأكروبول ما يستحق الذكر.

وقال ديودور إنه اكتسب من الرومانيين فى صقلية معرفة واسعة باللغة اللاتينية [١ ، ٤]. ولا نستطيع أن نجزم بأنه استعمل فى دراسته تاريخ روما المصادر اللاتينية أم المصادر اليونانية، ويذهب بعض النقاد إلى أنه كان يجهل اللغة اللاتينية جهلا يكاد يكون تاما، ولكننا لن نأخذ برأيهم دون تحفظ. فلعل معرفته باللغة اللاتينية كانت بالقدر الذى يسمح له بالنظر فى المصادر ومراجعتها.



بدأ ديودور تاريخ العالم بعصر الأساطير ووقف عند سنة ٥٩ق.م. وهى السنة التى تولى فيها قيصر القنصلية للمرة الأولى. وكانت «خزانة التاريخ» مؤلفة من أربعين جزءا، يظهر أنها كلها كانت على حجم واحد. ولم يبق منها إلا الأجزاء الخمسة الأولى، والأجزاء العشرة من الجزء الحادى عشر إلى الجزء العشرين، ووصلت إلينا مقتطفات من الأجزاء التى ضاعت مقتبسة فى كتب بعض الكتاب الأقدمين وعلى رأسهم يوسيبيوس Eusebius وعند المصنفين البيزنطيين.

ولقد وضع ديودور منهجا فى المقدمة [١ ، ٤] يتبين منه أن الكتب الستة الأولى تقف عند الحروب الطروادية، والكتب الإحدى عشر التالية تتناول تاريخ العالم من الحروب الطروادية إلى موت الإسكندر أما الكتب الثلاثة والعشرين الأخيرة فتروى قصة العالم من موت الإسكندر إلى عام ٥٩ق.م.

ولنفصل موضوعات الأجزاء المختلفة فيما يلى:

الكتاب ١ يتناول تاريخ مصر.

الكتاب ٢ يتناول تاريخ آشور والهند وبلاد العرب.

الكتاب ٣ يتناول تاريخ بلاد الحبشة ويبحث فى أصل الآلهة.

الكتاب ٤ يتناول تاريخ الأساطير المتصلة بآلهة اليونانيين الكبرى، وأسطورة السبعة ضد طيبة.

الكتاب ٥ يتناول تاريخ الجزائر الغربية وجزيرتى رودس وكريت. وهذه الأجزاء ليست بذات خطر من الوجهة التاريخية المحضة، لأنها تدور حول موضوعات واسعة لا يسهل حصرها، ولأنها كذلك محشوة بالأساطير والخرافات.

الكتاب ٦ - ١٠ ضاعت، ولم يبق منها إلا مقطوعات تدور أقدمها حول الحروب الطروادية وأحدثها تروى وقائع سنة ٤٨٠ق.م. ومن هذا التاريخ يعتمد ديودور على كتاب المؤرخ إفوروس Ephorus «فى التاريخ العام».

الكتاب ١١ يتناول تاريخ الفترة من ٤٨٠ إلى ٤٥١ق.م.

الكتاب ١٢ يتناول تاريخ الفترة من ٤٥٠ إلى ٤١٦ق.م.

ونلاحظ هنا أن ديودور هو الحجة الكبرى فى تاريخ الفترة الواقعة بين ٤٨٠ق.م. و٤٣٠ق.م. فقد تناولها ثيوكيديديس باختصار فى ثلاثين فصلا فقط.

الكتاب ١٣ يتناول تاريخ الفترة من ٤١٥ إلى ٤٠٥ق.م.

الكتاب ١٤ يتناول تاريخ الفترة من ٤٠٤ إلى ٣٨٧ق.م.

الكتاب ١٥ يتناول تاريخ الفترة من ٣٨٦ إلى ٣٦١ق.م.

ويلاحظ أن هذه الكتب ليست بذات خطر لأن المؤرخين ثيوكيديديس وكرينوفون قد تناولا الفترة الواقعة بين سنة ٤٣٠ق.م. و٣٦٢ق.م بالتفصيل وكلاهما معاصر لحوادثها.

الكتاب ١٦ يتناول تاريخ الفترة من ٣٦٠ إلى ٣٣٦ق.م.

الكتاب ١٧ يتناول تاريخ الفترة من ٣٣٥ إلى ٣٢٤ق.م.

الكتاب ١٨ يتناول تاريخ الفترة من ٣٢٣ إلى ٣١٨ق.م.

الكتاب ١٩ يتناول تاريخ الفترة من ٣١٧ إلى ٣١١ق.م.

الكتاب ٢٠ يتناول تاريخ الفترة من ٣١٠ إلى ٣٠٢ق.م.

ويلاحظ أن هذه الكتب عظيمة الشأن من الناحية التاريخية، ففي تاريخ الفترة الواقعة بين ٣٣٦ وسنة ٣٢٣ق.م. ديودور هو العمدة الأكبر فهو يسرد حوادثها مسلسلة سنة بعد أخرى، ويعطي بذلك صورة شاملة لعهد فيليب المقدوني، وهو في الفترة الواقعة بين سنة ٣٣٦ وسنة ٣٠٢، يسد الثغرات التي تقع بين المؤرخين الأقدمين. فيكمل ما يدور في تواريخهم من نقص. أما عن تاريخ خلفاء الإسكندر فديودور هو المرجع الوحيد في أيدي المؤرخين، ولذلك كان للكتب ١٨ و١٩ و٢٠ شأن كبير.

الكتب ٣١ – ٤٠ تتناول الفترة الواقعة بين ٣٠١ وسنة ٦٠ق.م. ولم يبق منها إلا مقطوعات قليلة.



والآراء متضاربـــة فى أمر طريقة ديودور فى التأليف. فيرى البعض أنه يعتمد فى تاريخ عصر ما على مؤلف واحد يختاره، ثم يسد ما يبدو له من أوجه النقص من مؤلفين آخرين، ولكننا لا نســتطيع أن نقر هذا الرأى، فإن الكتاب الأول «فى مصر» يثبت أنه رجع إلى مصادر كثيرة، وأنه اســتوعبها كلها، وأنه بدأ فى الكتابة بعد دراسة طويلة لمراجعه، وأنه يذكر أحيانا مصادره، ويغفل ذكرها أحيانا أخرى.

ويقول ديودور إن تأليف كتاب فى التاريخ العام عمل شاق [١،٣] لأن مواد الدراســة متفرقة فى كتب كثيــرة، والآراء فيها متباينة تباينا شديدا، ولعله اختار هذا النحو من القول لإبلاغ القارئ أن ما فى الكتاب مســتقى من مصادر ســابقة، هذا إلــى أن فى اختيار العنــوان «خزانة التاريــخ» ما يشــي إلى أن ديــودور يرى أن تاريخــه لا يعدو أن يكون ملخصا وافيا لتاريخ مطول فى مصادر متفرقة.

الكتاب الأول

يبدأ الكتاب الأول بمقدمة فى دراسة التاريخ، تبيِّن أن ديودور يؤمن إيمانا راسخا بعقيدة الرواقيين فى فائدة دراسة التاريخ العملية، ويقرر فيها أن ليس من أهدافه أن يجعل من تاريخه أداة لتسلية القارىء أو تزجية فراغه، أو إشباع شهوة الاطلاع فيه. كان غرضه الأول بيان ما يمكن أن تأخذ به الإنسانية من أنظمة كل بلد، ومن أغراضه ولا شك إذاعة شهرة عظماء الرجال، والتنويه بجلائل أعمالهم، حفزا للهمم، وحثا على العمل. ويتحدث بعد ذلك عن منشأ الكائنات الحية، لأن فى الأساطير ما يشير إلى أن الكائنات الحية ظهرت أول الأمر فى مصر، وكان نشوؤها ذاتيا [١، ١٠]، ولقد ظل هذا الاعتقاد سائدا إلى القرن السابع عشر بعد الميلاد. ثم يتحدث عن الآلهة، لأن مصر موطنها الأصلى فيما تقول الأساطير [١، ٩]، وليس احتفال ديودور بآلهة مصر، ناشئا عن ولع بمصر أو غرام بالوصول إلى الحقيقة. بل كان محاولة فى تفهم الدين المصرى على اعتبار أنه أصل الديانة اليونانية، فقد كان ديودور مؤمنا إيمانا عميقا بالآلهة اليونانية، ولقد تجلت شدة إيمانه بها فى حديثه عن الزلازل والفيضانات التى حدثت فى بلاد اليونان فى سنة ٣٧٣ق.م، فقد عزاها إلى غضب الآلهة وخصوصا بوزيدون إله البحر. هذا مع أنه كان مطلعا على ما أبداه الفلاسفة الطبيعيون من أسباب لهذه الزلازل، وتعليل لهذه الفيضانات.

ولقد شـغله أمر الدين فى مصر عن تسـجيل الحوادث السياسـية والاجتماعيـة بعض الشـىء، وليس هذا شـأنه دائما، فقـد كان قليل الالتفـات لمظاهـر الدين حينما تناول تاريخ العصـور المتأخرة فى بلاد اليونان مثلا.

ثم ينتقل إلى تاريخ البلاد السياسـى، ونظامها الاجتماعى، وعنى بتفصيل أمر الطبقات، ونوه بفضل النظام الأرسـتقراطى فى الحكم، فقد كان ديـودور من عائلة أرسـتقراطية، وكره تدخل العامة فى السياسـة وهاجم النظام الديمقراطى فى كل مكان، محتجا على ما كان من انحلال أثينا من جراء إشراف العامة على سياسة البلاد.

أما المصادر التى اعتمد عليها فى تاريخ مصر، فالمرجح إنه اعتمد فيمـا روى مـن عادات أهل البـلاد وتقاليدهم على المـؤرخ هيكاتيوس الأبـدرى الذى زار مصر فى أوائل القرن الثالث ق.م. واعتمد فى وصف البـلاد والحديث عن نهر النيل على المـؤرخ الجغرافى أجاثارخيديس الإكنيدى الذى عاش فى الإسكندرية فى القرن الثانى ق.م، وألف كتابا عن «البحر الأحمر» فى خمسـة أجزاء. واعتمد فـى الناحية التاريخية على هيرودوت.

وكثيرا ما يذكر ديودور روايات الكهنة المصريين فيما يستوضحهم من مسـائل، ولعله أضاف إلى ذلك ملاحضاته الشـخصية لآثار البلاد وسكانها.

وثمة مصـدر آخر، فقد كانت اللغة اليونانية لغة البلاد الرسـمية عندمـا زار ديودور مصـر، وكانت كذلك منذ القرن الثالث قبل الميلاد،

وكانت سائدة فى الأوساط المتعلمة وصاحبة النفوذ، فلعل هؤلاء كانوا مصدرا من المصادر التى استقى منها معلوماته. هذا إلى أنه لم يكن من الميسور للكهنة وهم يعلمون صلته بمن يتكلمون اللغة اليونانية من أهل البلاد، أن يملوا عليه معلومات زائفة لا قدرة له على نقدها كما كان الأمر بالنسبة لهيرودوت مثلا. وهذا مما يعلى من شأن كتابه عند المؤرخين.

وفى الكتاب من الأدلة ما يحملنا على الاعتقاد بأنه رجع إلى أحسن المصادر فى استقاء تاريخه، وأنه عرض آراء مؤلفيها أحسن عرض وأصدقه، وإن الكتاب الأول الذى يكاد يكون مقصورا على تاريخ مصر، هو أدق وأوفى رواية أدبية – بعد كتاب هيرودوت – فى تاريخ البلاد، ووصف آثارها، وتقاليد أهلها.

وبعد فهذا كتاب ألف منذ حوالى ألفين من السنين، ولنصه عندنا حرمة تجعلنا نتحرج من التصرف فى ترجمته، ولذلك آثرنا الاقتراب من الأصل، مبرزين أسلوب المؤلف وطرائق تعبيره، وأبقينا على أسماء البلدان كما جرى بها قلمه، وأثبتنا فى لحق خاص ما يقابلها فى العصر الحديث، وكذلك الأمر فى الموازين والمكاييل والأطوال.

الجزء الأول

١ إن الذين اضطلعوا بكتابة «تاريخ عام» لهم على الناس أجمعين حق الشكر الجزيل لأنهم كابدوا متاعب شخصية للنهوض بالحياة الإنسانية عامة. وإن التعاليم المفيدة التى يعرضونها فى دراستهم لا تشوبها شائبة من خطر فى حين يقدمون لقرائهم أثمن تجربة. والحق أن تمثل التجربة فى كل حالة على حدة يتضمن مشاقا وأهوالا كبيرة حينما:

«عاين مدنا لشعوب كثيرة، ودرس فكرهم»(١)

وإن ما تقدمه لنا دراسة التاريخ من فهم لسقوط الآخرين ونجاحهم ليذودنا بتعليم دون مقاساة تجارب. وبعد فقد أخذ المؤرخون على عواتقهم أن يجمعوا فى رسالة واحدة بعينها الجنس الإنسانى كله – هذا الجنس الذى يقرب بعضه من بعض فى الرحم ولكنه يبتعد بعضه عن بعض فى الزمان والمكان. وبهذا النحو يعمل المؤرخون كما لو كانوا قد خلقوا أداة للعناية الإلهية. لأن العناية الإلهية بعد أن أقامت الصلات بين نظام الكواكب المرئية الثابت وبين أخلاق الناس، جعلت العالم كله تحت إشراف مستمر إلى الأبد. وأفردت لكل نصيبه وفقا لمشيئة الأقدار.

(١) البيت لهوميروس من الأوديسية الكتاب الأول، البيت الثالث

وكذلك المؤرخون يسـردون حوادث الماضى فـى العالم كله كما لو كان العالم بلدا واحدا، فيقدمون فى بحوثهم ثبتا واحدا لحوادث الماضى فى متناول الجميع. وجميل أن نستطيع أن نتخذ من خطأ الآخرين الأعمى موعظة لإصلاح سـلوكنا وأن تكون عدتنا فى صروف حياتنا المتشـابكة تقليـد الذيـن نجحوا فى الماضـى لا بحث الحـوادث الراهنة. وفضلا عن ذلك، فالناس كلهم يفضلون الشـيوخ على الشـبان فى المشاورة لما أضفته عليهم السـنون من خبرة. ولكن دراسـة التاريـخ تفوق التجربة الفردية بما تمتاز به حقا من الشـواهد الكثيرة. ومن هنا يصح أن نعتبر تحصيل المعلومات التاريخية أفيد شـىء فى صروف الحياة وتقلباتها. فمن التاريخ يتعلم الشـبان حكمة الشيوخ، ويجد الشيوخ تجاربهم التى حصلوهـا مضاعفة. ويجعـل التاريخ المواطن العادى قـادرا على القيام بأعباء القيادة. ويدفع القادة بأمل الشـهرة الخالدة إلى الاضطلاع بأنبل الغايـات. هـذا إلى أنه يجعل الجند أكثر اسـتعدادا لمواجهة الأخطار فى سـبيل بلادهم، أملا فى حسن الذكر بعد الموت، وهو يثنى الأشرار ويقمع دوافع الشر فيهم خوفا من العار الأبدى.

٢ وبالجملـة فقد كان الأمل فى طيـب الذكر فى التاريخ حافزا للبعض على إنشـاء المدن وللبعض الآخر على شرع القوانين التى تحيط الجمعية الإنسـانية العامة بسـياج مـن الأمان، وباعثـا للكثيرين على الاجتهاد فى ابتكار الفنون والعلوم لفائدة الجنس الإنسـانى. ولما كانت سـعادتنا تتحقق بجماع هذه المجهودات فيجـب علينا أن نكيل أعلى

أقداح الثناء لسببها الرئيسى وهو التاريخ، وينبغى لنا أن نرى فى التاريخ حاميا لفضيلة النابهين، وشاهدا على رذيلة الوضعاء، ومنعما على الجنس الإنسانى عامة. ذلك أنه إذا كانت الأساطير التى تدور حول العالم السفلى – وليس لها أساس من الحقيقة – عاملا كبيرا فى تقوى العالم وعدله، فكم يكون التاريخ، وهو نبىّ الحق، ومعقل الفلسفة كلها، أشد قدرة فى رأينا فى توجيه الأخلاق الإنسانية نحو النبل والشرف؟ والحق أن الناس أجمعين – لما فطرت عليه الطبيعة الإنسانية من ضعف – يحيون فترة قصيرة فحسب من الأزل، وهم بعد هذه الحياة أموات إلى الأبد. فأولئك الذين لم يقوموا بعمل مذكور فى حياتهم. عندما تفنى أجسامهم يفنى معها كل ما يتصل بحياتهم. أما الذين كسبوا الشهرة بفضائلهم، فتُذكر أعمالهم على الدوام، يهتف بها صوت التاريخ الإلهى عاليا. ومن الخير فيما أعتقد ويوافقنى فى ذلك العقلاء من الناس، أن نحظى بشهرة باقية لقاء نصب زائل. فهرقل مثلا قد تجشم بمحض اختياره – والروايات كلها متفقة فى ذلك – طول الوقت الذى قضاه بين الناس مشاقا وأهوالا مستمرة ليفيد الإنسانية فيحظى بالخلود. أما سائر فضلاء الرجال، فقد اكتسب بعضهم مجد الأبطال، والبعض الآخر مجد الآلهة، واعتبروا جميعا أهلا لخالص الثناء، وقد خلد التاريخ فضائلهم. وتبقى سائر الآثار زمنا قصيرا ثم تأتى عليها الصروف المختلفة، أما قوة التاريخ فتنبسط على المعمورة كلها وتتخذ من الزمان الذى يعدو على كل ما عداه حاميا للتراث المقيم بين الأعقاب. ويضيف التاريخ كذلك

قوة البيان وليس من السهل أن يجد المرء شيئا آخر أفضل من هذا. فبه فاق اليونانيون البرابرة، والعلماء الجهال. هذا إلى أنه بوساطة هذا الفن وحده يتأتى لفرد واحد أن يسود الآخرين وبجملة من القول، كل ما يعرض علينا يتخذ صورة متساوقة مع قدرة الخطيب الذى يعرضه، ونحن نسمى الرجال الفضلاء جديرين بالذكر، كأنهم ظفروا بالذكر بالقدح المعلى فى الشرف. وإذا قسِّم البيان إلى فروعه العديدة، لوقع أن الشعر يعطيك لذة لا فائدة. والقوانين تردع دون أن تهذب، وهكذا فى سائر الفروع، بعضها لا يضيف شيئا إلى سعادتك، ويسبب بعضها الآخر ضيقا ممزوجا بالفائدة، والبعض الآخر يغير الحقيقة، ولكن التاريخ وحده الذى تنسجم فيه الأقوال مع الأفعال، يتضمن فى كتبه كل الفوائد. والتاريخ كما يُرَى يحث الناس على العدل، ويثلب الأشرار، ويقرظ الصالحين، وبالاختصار فهو يفيد قرّاءه خبرة ثمينة.

٣ ولذلك كلما رأينا الذين يعنون بكتابة التاريخ يحظون بما هم أهل له من ثناء، انسقنا إلى النزول إلى حلبتهم، ولما صرفت ذهنى إلى المؤرخين السابقين، وبالرغم من موافقتى التامة على غايتهم، استخلصت من كتبهم أنهم لم يجتهدوا فى تأليفها أن يبلغوا كمال النفع كما كان ينبغى، ذلك بأنه بالرغم من أن فائدة القارئ تتحقق بفهم الكثير من الملابسات الشديدة الاختلاف، فإن أكثر المؤرخين سردوا أخبار حروب تامة فى حد ذاتها، شنها شعب واحد أو دولة

واحدة ولم يحاول إلا القليل أن يسردوا تاريخ الشعوب كلها من العصور القديمة إلى أيامهم، وحتى هؤلاء لم يضع بعضهم كل حادثة فى سياقها المناسب، وأهمل آخرون أخبار البرابرة. وأكثر من ذلك، فقد رفض بعض المؤرخين الأساطير القديمة لصعوبة تناولها، فى حين أن البعض الآخر لم يستطيعوا أن يتموا نهجهم لأن القدر اقتضب حياتهم[1].

وفضلا عن ذلك، فلم ينحدر واحد ممن تصوروا فكرة كتابة التاريخ العام بتاريخه إلى ما بعد العصر المقدونى، فقد وقف بعضهم بتاريخه عند أعمال فيليب[2]، والبعض الآخر عند أعمال الإسكندر، وبعضهم وقف به عند خلفاء الإسكندر أو سلالاتهم. وبالرغم من أن حوادث خطيرة قد وقعت فى الفترة التالية لهذا العهد، ولم تؤرخ إلى عهدنا هذا، فلم يتصد مؤرخ واحد إلى تأليفها فى سفر واحد، لضخامة العمل، ولما كانت تواريخ الحوادث، والحوادث نفسها متفرقة فى رسائل متعددة لمؤلفين مختلفين. فمن الصعب فهم هذه الفترة وتذكرها. وهكذا بعد أن فحصنا جميع المناهج التى اصطنعها كل من هؤلاء المؤرخين، عقدنا العزم على أن نأخذ بأكثرها فائدة للقارئ وأقلها مشقة عليه. ذلك أنه إذا أخذ المؤرخ على عاتقه أن يسرد - بقدر ما وسعته طاقته - ما تواتر

---

(١) يظهر أن ديودور يعنى هيرودوت ولم يكن له نظام ثابت فى تقويم الحوادث، وأناكسيمينيز من أهل لامبساكوس وقد قصر كتابه «يونانيات» على تاريخ اليونانيين، وايفوروس الكيمى الذى اغتاله الموت قبل أن يفرغ من كتابة تاريخه فوقف به عند سنة ٣٤٠ق.م.

(٢) فيليب الثانى ملك مقدونية ٣٥٩ - ٣٣٦ق.م. وهو أبو الإسكندر الأكبر ٣٣٦ - ٣٢٣.

لــدى النــاس من تاريخ العالــم كله كأنه تاريخ بلد واحــد، من العصور القديمــة إلى العصر الذى نعيش فيه، فسيتجشــم كما هو ظاهر مشــاقا كثيرة، ولكنه ســيؤلف أفيد الأســفار فى عين القارىء المدقق. وسيكون فى اســتطاعة كل قارئ أن يســتنبط كما يشاء، من هذا الشعر - كما لو كان نبعا مترعا - ما عســاه أن يكون ذا فائدة له فى ملابســاته الخاصة. ويجد الكتاب الذين يتصدون لســرد حوادث قد دونها هذا العدد الضخم من المؤرخين أن من العسير أولا الحصول على الكتب اللازمة لهم، ومن الصعب ثانيا تفهم سير الحوادث وضبطه لاختلاف المصادر وكثرتها.

هــذا من ناحية، ومن ناحية أخــرى فالموضوع الذى تحتويه دفتا ســفر واحد ويشيع فيه ســياق متصل للحوادث يكون من السهل قراءته وبسيط للغاية تتبعه وفهمه. وبالجملة ينبغى أن نعتبر هذا المنهج الأخير مــن التاريــخ أفضل من ســائر المناهج كما أن الكل أفضــل من الجزء، والســياق المتصل خير من المتقطع كما أن الحادثة التى يضبط تاريخها بدقة أفيد من حادثة لا يعرف فى أى زمان وقعت.

٤ ولذلــك فلما أن رأيت أن هــذا المنهج فى التأليف وهو عظيم الفائدة يتطلب عملا شــاقا وزمنا طويلا فقد اشــتغلت بــه ثلاثين عاما. واحتملت فيه مشــاقا وأخطارا جســيمة، فزرت رقعة واســعة من آسيا وأوربــا لأرى بنفســى أكثر الأماكــن وخصوصا أكبرها خطــرا. فقد كان الجهــل بوصف المواقع فى الحقيقة ســببا فى كثيــر من الأخطاء التى وقــع فيها مؤرخون، لا من الطبقة المتوســطة وحدهــا، بل ممن بلغوا ذروة الشــهرة. وكان مما سعدنى على القيام بهذا المشروع أولا وقبل كل

شىء شغفى بالدرس، فالشغف هو الذى يتيح للناس أجمعين أن يقوموا بأعمـال تبدو بعيدة التحقيق. وأتيح لى ثانيا مدد عظيم فى روما من كل ما يمت لموضوعنا بصلة. لأن سمو هذه المدينة التى يمتد سلطاتها إلى أطـراف العالم هيأ لنا أثناء إقامتنا الطويلة فيها كثيرا من المواد القريبة المتناول، إذ لما كنا من أهل مدينة أجريوم فى صقلية، وكنا على صلات وطيدة بالرومان فى هذه الجزيرة واكتسبنا معرفة واسعة بلغتهم[1]، فقد وقفنا على معلومات دقيقة لكل مراحل تاريخ الإمبراطورية الرومانية فى الوثائق الرسمية المحفوظة بعناية فى روما منذ أحقاب عديدة. ولقد استهلت تاريخنا بسرد أساطير اليونانيين والبرابرة بعد أن محصنا – بقدر ما وسعنا الجهد – الروايات التى أدلى بها كل شعب عن عصوره القديمة.

والآن وقد فرغ هذا السفر، ولو أن بعض أجزائه لم ينشر بعد، أحب أن أكتب مقدمة قصيرة تلم بأطراف الموضوع كله. فالكتب الستة الأولى تدور حول تاريخ الفترة السابقة لحرب طروادة[2] وأساطيرها، وتتناول الثلاثة الأولى منها تاريخ البرابرة القديم، والثلاثة التى تليها تكاد تكون قاصرة على تاريخ اليونانيين. ورويت فى الكتب الإحدى عشر التالية التاريخ العام من حرب طروادة إلى موت الإسكندر. وأثبت فى الثلاثة والعشرين كتاب التالية سائر الروايات إلى مبدأ الحرب بين الرومانيين والغالين، تلك الحرب[3] التى هزم فيها القائد جايوس

(١) كانت اللغة اليونانية لغة صقلية الأولى فى ذلك العصر.

(٢) المأثور أن الحرب الطروادية دارت من سنة ١١٩٢ إلى سنة ١١٨٣ق.م.

(٣) بدأت الحرب الغالية سنة ٥٩ق.م.

يوليــوس قيصر -الذى ألِّه من أجل أعماله المجيدة- أكثر قبائل الغال، وأشدها شــغفا بالحرب، ومد حدود الإمبراطورية الرومانية إلى الجزائر البريطانيــة. ولقد وقعــت الحوادث الأولى من هذه الحرب فى الســنة الأولى من الأوليمبياد الثمانين بعد المائة حين كان هيرودس Herodes حاكما فى أثينا.

٥ تلك إذن العهود التى يتناولها هذا السفر، وإنى لم أحدد بالدقة حوادث العهد السابق للحرب الطروادية لأنه لم يصلنا تقويم نطمئن إليه فى تاريخ حوادث هذه العهود. ولكنا تابعنا أبو للودوروس الآثينى[1] فى حســاب ثمانين ســنة بين الحرب الطروادية ورجوع أحفاد هرقل، ومن هذا التاريخ إلى الأوليمبياد الأولى حسبنا ٣٢٨ سنة، وحسبنا الفترة منذ حكم الملوك فى أسبرطة ومنذ الأوليمبياد الأولى إلى بدء الحرب الغالية التــى جعلناها نهاية تاريخنا بـ٧٣٠ ســنة، وهكذا يتناول هذا الســفر المؤلف من أربعين كتابا تاريخ ١١٣٨ ســنة فيما عدا العهد الذى وقعت حوادثه قبل الحرب الطروادية.

وإنا نشــرح هذه المســائل بدقة بادىء ذى بــدء لحرصنا على أن تعطى القارئ صورة عامة للموضوع كله، ولنمنع الذين دأبوا على تصنيف الكتب من مسخ أعمال غيرهم[2] أما نحن فنرجو ألا يثير ما دوِّن فى هذا

(١) فيلسوف ومؤرخ عاش فى القرن الثانى ق.م. تناول فى كتابه «التقويم» الفترة الواقعة بين سنة ١١٨٤ وسنة ١١٩ق.م.

(٢) قال ديودور فى كتابه الجزء ٤٠، ٨ أن بعض أجزاء الكتاب وصلت إلى أيدى الجمهور قبل نشر الكتاب كله. فلعل فى هذه الجملة إشارة إلى عبث الناشرين بكتبه.

السفر كله على وجه الدقة حسدا، وأن تلاقى الأخطاء التى نتجت عن الجهل تصويبا ممن هم أكثر منا علما.

والآن وقد بينا نهجنا وغايتنا سنحاول أن نحقق ما وعدنا به من بحث.

٦ لن أثبت بحثا قائما بذاته مفصلا فى العقائد الإلهية التى اعتنقها أولئك الذين كانوا أول من أدخل عبادة الآلهة، ولا الأساطير التى رووها عن كل إله من الآلهة لأن هذا الموضوع يحتاج إلى بحث مستفيض. ولكنا سنثبت باختصار كل ما نراه متصلا بدراستنا هذه حتى لا يفوتنا شىء يستحق الذكر. أما فيما يتعلق بالجنس الإنسانى قاطبة فسأتناول بدقة الحوادث التى وقعت فى الأنحاء المعروفة من المعمورة بقدر ما يتيسر لنا فى مسائل حدثت فى هذا العهد البعيد، بادئا بأقدم العصور.

أما فى مسألة خلق الإنسان فى البدء فهناك رأيان عند أشد الفلاسفة الطبيعيين والمؤرخين تحقيقا. فبعضهم يرى أن العالم لم يحدث أبد وأنه لن يزول، ويقولون إن الجنس الإنسانى كذلك وجد منذ الأزل وأنه لم يكن هناك أبدا زمن بدأ فيه الإنسان فى الظهور[1] ويرى الآخرون أن العالم حادث وسوف يزول، ويقررون أن الجنس الإنسانى كذلك كان ظهوره الأول فى وقت معلوم.

٧ والمقول إنه فى البدء عندما كان الكون فى حالة تكوين، كانت السماء والأرض فى صورة واحدة لأن طبيعتهما كانت متحدة،

(١) كان هذا رأى أرسطو وخليفته ثيوفرست.

وبعد ذلك عندما انفصل جسماهما الواحد عن الآخر، أخذ الكون المظهر الذى يبدو فيه الآن. أما الهواء فأخذ فى حركةٍ مستمرة، وارتفع العنصر النارى فيه إلى الأجواز العليا، فكل ما له هذه الطبيعة يرتفع إلى أعلى لخفته، وهذا هو السبب فى أن الشمس وكل مجاميع الأجرام دائبة الحركة الكونية، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يهبط العنصر اللزج الكثيف والمادة السائلة معا إلى أسفل لثقلهما، وهذا العنصر يتركز دائما فى نفسه ويتكثف وهكذا كوَّن البحر من السوائل وكوَّن من الأجزاء الأكثر صلابة أرضا كانت لا تزال لزجة شديدة الرخص، وعندما أرسلت الشمس أشعتها عليها صارت هذه الأرض أولا صلبة وبعدئذٍ عندما جعلت الحرارة أديم الأرض عطنا انبثقت بعض الرطوبة فى مواضع متعددة وتكونت فيها مواد عطنة مغطاة بغشاء رقيق. وتلاحظ هذه الظاهرة إلى الآن فى أرض البرك حينما تبرد الأرض ويصبح الهواء فجأة شديد الحرارة، فالعناصر الرطبة التى تحييها الحرارة كما قد بينا، تتغذى مباشرة أثناء الليل من الضباب الذى يتكثف من الهواء المحيط، أما بالنهار فتصلبها الحرارة الشديدة، وأخيرا عندما بلغت هذه الجراثيم أقصى نمائها وأصبح الغشاء شديد السخونة فتشقق، نشأت مخلوقات من جميع الأنواع. فأما التى اكتسبت منها حرارة شديدة، فقد اتخذت أجنحة وارتفعت إلى الأجواز العالية، وأما التى تعلقت بالطبيعة الأرضية فقد اندرجت بين الزواحف وسائر الهوام الأرضية. هذا فى حين أن تلك التى كان لها نصيب كبير من العنصر المائى فى

تكوينها فقد استجابت إلى المنطقة التى تشابه طبيعتها وصارت كائنات مائية. وحيث أن الأرض تزداد باستمرار صلابة بتأثير حرارة الشمس والهواء، فقد أصبحت أخيرا غير قادرة على أن تخرج أيا من الكائنات الكبيرة، وبدلا من ذلك صار كل نوع من الكائنات الحية يتولد بمعاشرة كائنٍ آخر. ويبدو أن يوريبيديس وهو تلميذ أناكساجوراس[1] الفيلسوف الطبيعى لا يرى غير الرأى الذى أسلفنا ذكره فى طبيعة الكون، فقد أورده فى مسرحية ميلانيبى هكذا:

وهكذا كانت السماء والأرض فى صورة واحدة.
ولما فتقتا وانفصلتا الواحدة عن الأخرى.
أنجبتا كل شيء وأرسلتا به إلى النور.
الأشجار وذوات الأجنحة والكواسر،
والهوام التى يغزوها البحر والإنسان الفانى.

٨ هذه إذن هى الرواية التى وصلتنا عن مبدأ تكوين العالم، ويقولون أيضا إن الناس البدائيين، وكانوا يعيشون عيشة فوضى وحشية، كانوا يخرجون إلى المراعى فرادى ويأكلون ألذ العشب وثمار الأشجار البرية، ولما كانت الحيوانات المفترسة تهاجمهم، ساعد بعضهم البعض بدافع من المصلحة، ولما حدا بهم الخوف إلى التجمع، أصبحوا بالتدريج يعرفون هيئة بعضهم بعضا. وكان منطقهم مشكل لا يبين. وأخرجوا شيئا

(١) أناكساجوراس فيلسوف من المدرسة الأيونية عاش فى القرن الخامس ق.م. ويأتى ذكره ثانية فى الفصل الثامن والثلاثين.

فشـيئا ألفاظا مبينة. وبعد ذلك اصطلحوا فيما بينهم على رموز للأشـياء التى فى متناولهم، وأبان بعضهم لبعض عن أفكارهم فى كل أمر. وقامت جماعـات على هذا النحو فى العالم كلـه، ولذلك لا يتكلم الناس كلهم لغـة واحدة، لأن كل جماعة ألفت لغتها كيفما اتفق، وهذا هو تفسـير اختلاف اللغات، وهذه الجماعات البدائية للإنسـان هى أصل الشعوب كلهـا. وإذن فقـد عاش الناس الأول حياة شـاقة، فلـم تكن واحدة من مقوِّمات الحياة قد عرفت بعد، فلم تكن لهم ملابس ولم يكونوا قد عرفوا المسـاكن والنار ولم يفطنوا بتاتا إلى الغذاء المزروع. وكانوا فى الحقيقة فى جهل تام بحصـاد المحصولات البرية، فلم يهيئوا مخازن للحبوب لتفى بحاجتهم. وهكذا كان الكثيرون منهم يموتون فى الشـتاء من جراء البـرد وقلة الغذاء. ولكن التجربة علمتهم شـيئا فشـيئا أن يتخذوا من الكهوف مأوى أثناء الشتاء، وكانوا يختزنون فيها من نباتات الحقول ما أمكن الاحتفاظ به، ولما عرفوا النار وسـائر المقومات المفيدة، اكتشفت شـيئا فشيئا الفنون والحرف وسائر ما عساه أن يكون ذا فائدة فى حياة الإنسان. وبالجملة. فالضرورة وحدها هى التى علمت الإنسان كل شىء. ففى كل فن كانت الضرورة هاديا للرجل الذكى الذى أوتى يدين قادرتين على كل عمل وفصاحة منطق وذكاء عقل.

وسنكتفى بما أسلفنا فى مسألة مبدأ خلق الإنسان وحياة البدائية، فغايتنا أن نحتفظ بالتناسب فى هذا السفر.

٩ وسـنحاول الآن أن نسـرد الحوادث التى وقعت كما وصلنا فى مأثور القول، فى الأنحاء المعروفة من المعمورة. ولسـنا بقادرين أن

نتحـدث عـن أول من حكم من الملـوك، ولا أن نتبع فـى هذا الصدد المؤرخيـن الذين يدعون معرفتهم. فمن غير المعقول أن يكون اكتشـاف الكتابة قديما إلى حد أنه كان معاصرا للملوك الأول، وحتى إذا سـلمنا بهـذا الفـرض فإنه من الواضح على أى حـال أن المؤرخين فئة حديثة الظهـور فى الحيـاة العامة. ولا يدعـى اليونانيون وحدهـم إنهم أقدم الأجناس، بل يشـاركهم فى هذا الادعـاء كثيرٌ من البرابرة، ذلك بأنهم يعتبرون أنفسهم سكان العالم الأصليين وأول من اكتشف الأشياء المفيدة فى الحياة، ويعتقدون أن حوادث تاريخهم أول ما اعتبر أهل للتسجيل. ولسـنا بقادرين من ناحيتنا أن نرى وجه الحق فى أمر قِدَم كل شعب، ولا أن نقطع برأى فى أى الشـعوب سـبق الآخر فـى القدم، وبكم من السـنين سبقها. ولذلك فسوف نسـرد هنا باختصار الروايات التى يدلى بها كل شـعب فى قدمه وتاريخه المتقادم. فغايتنا أن نحتفظ بالتناسب فى هذا السـفر، وسـنتناول أولا تاريخ البرابرة، وليس ذلك لأننا نعتقد أنهـم أقدم من اليونانيين كما قال إيفوروس Ephorus بل لأننا نريد أن نروى بادىء ذى بدء تاريخهم حتى إذا بدأنا قولنا فى تاريخ اليونانيين لا نقحم حادثة أجنبية فى سياق تاريخهم.

ولقد كانت مصر، كما تروى الأساطير مهد الأرباب الأول، وهناك فيما يقال بدأ رصد النجوم، هذا إلى أن حوادث كثيرة جديرة بالذكر قد سُجِّلت لعظماء الرجال فيها.

لذلك سنبدأ هذا السفر بتاريخ مصر.

١٠ يقول المصريون إنه فى البدء عندما خلق العالم ظهر الإنسان أولا فــى مصر، وذلك لاعتدال مناخ البــلاد ولطبيعة نهر النيل فإن هذا النهــر الوافر الإنتاج الذى يهيــىء الغذاء الذى ينمو نمــوا طبيعيا يقيم بسهولة أود المخلوقات بمجرد نشوئها، ذلك أن جذور الغاب واللوطس وكذلك الفول المصرى والنبات المســمى كورســيون[1] وكثيرا غيرها مما يشاكلها تكفل لبنى الإنسان غذاء صالحا شهيا. وهم يحاولون أن يدللوا على صحة ما يذهبون إليه من أن المخلوقات قد ظهرت أولا فى أرضهم، بــأن الأرض حول طيبة تخرج إلــى يومنا هذا فى بعض الفصول جرذانا كبيــرة الحجم غفيرة العدد إلى حد يملأ الناظر عجبا من هذه الظاهرة، وبعض هذه الجرذان تتخذ ســمتها حتى الصــدر والقدمين الأماميتين. وتأخذ فى الحركة فى حين أن بقية الجســم لم يتشــكل بعد، وما يزال طين الأرض باقيا فيه على حالته الطبيعية. ومن هذا يتضح أنه فى البدء عندما تكوّن العالم وصار مناخ الأرض معتدلا، كان نشــوء الإنســان لابد فى أرض مصر، لأن سائر أنحاء المعمورة فى الحقيقة لا تخرج الآن فى أى مــكان منها واحدة من أمثال هذه الكائنات الحية. ففى مصر وحدها يمكــن أن ترى بعض المخلوقات فى طريقها إلى الحياة على هذا النحو غيــر المألوف. وبالجملة، فهم يقولون إنه إذا كان أكثر الكائنات الحية قــد هلكت فى الطوفان الــذى حدث فى عهد ديوكاليون فمن الجائز أن يكون سكان مصر الجنوبية قد نجوا. لأن هذه البلاد عديمة الأمطار فى

(١) الكورسيون هو درنة النيلوفر الهندى **Nymphaea stellata** الذى ينبت على ضفاف النيل.

الغالــب. أمــا إذا كان كان الهلاك عاما – كمــا يؤكد البعض – وكانت الأرض قــد أنجبت من جديد أنواعــا حديثة من الأحياء، فإنه – حتى علــى هذا الفــرض – يكون مبدأ ظهــور الكائنات الحيــة أحرى بهذه البــلاد، ذلك أنه عندما اقترنت الأمطار الغزيرة التى هطلت على جميع الأنحاء، بالحرارة التى تسود مصر، أصبح المناخ فى غالب الظن شديد الملاءمة لخلق جميع الكائنات الحية من جديد. وحتى فى أيامنا هذه، قد يرى المرء فى آخر موســم الفيضان بعض الأنواع من المخلوقات فى حالة نشــوء واضحة فى جميع أنحاء مصــر التى تغمرها مياه الفيضان، ذلك أنه عندما تنحســر مياه النهر وتجفف الشــمس حواف الطين تنشأ الحيوانات فيما يقولون، فيكون بعضها تام التكوين، فى حين أن البعض الآخر لا يزال فى طريق التكوين ملتصقا بالأرض ذاتها.

١١ ومهما يكن من شيء، فإنه عندما تأمل سكان مصر الأول فى الكون وفى طبيعة العالم، ملئوا دهشة وإعجابا، وتصوروا أن هناك إلهين أبديين أزليين هما الشــمس والقمر، يســمى أولهمــا أوزيريس وثانيهما إيزيس ويمكن شــرح كلا هذين الاسمين بالرجوع إلى اشتقاقهما. فكلمة أوزيريس، إذا ترجمت إلى اليونانية كان معناها «كثير الأعين» والسبب فى هذه التســمية واضح. ذلك أنه لما كانت الشــمس ترسل أشعتها فى كل مــكان فكأنها ترى الأرض كلها والبحر بأســره بعيون كثيرة. ويتفق قول الشاعر[1] مع ما ذكرنا.

«الشمس التى تطلع على كل شيء، وتسمع كل شيء».

(١) الشاعر يعنى هوميروس، والبيت من الأوديسية ١٢، ٣٢٣.

ويطلق بعض كتّاب الأساطير القدماء عند الإغريق على أوزيريس اسم ديونيسوس Dionysus وقد يحرِّفون الاسم إلى سيريوس Sirion ومن بين هؤلاء يومولبوس[1] Eumolpus إذ يقول في قصيدته في مدح باخوس Bacchus

«ديونيسوس لماعٌ كالنجم، ناريّ الضوء».

وأورفيوس Orpheus حين يقول

«ولهذا يدعوه الناس فانيس[2] وديونيسوس»

ويقول البعض إن العباءة المتخذة من جلد الغزال التي يرتديها ترجع إلى السماء الموشاة بالنجوم. أما اسم إيزيس فلو ترجم كان معناه «القديمة» ومصدر هذه التسمية ميلادها الأبدى الأزلى. أما القرنان اللذان يوضعان فوق رأسها فيرجعان إلى المظهر الذى تبدو فيه حينما يكون القمر هلالا، وإلى البقرة التى تقدس باسمها عند المصريين. ويؤمن المصريون بأن هذين الإلهين يهيمنان على الكون بأجمعه، ويهيئان الحياة والنماء لكل شىء بوساطة فصول ثلاثة هى الربيع والصيف والشتاء، تتم دورتها فى اطراد غير ملحوظ. ومع أن هذه الفصول الثلاثة تختلف فى طبيعتها اختلافا بينًا إلا أنها تتم السنة فى انسجام تام. وهذان الإلهان يهبان أعظم القوى الطبيعية لخلق الكائنات الحية، فالإله يبعث قوى الحرارة والروح، والإلهة تبعث قوى الرطوبة والجفاف

(١) الاسم يعنى فى اليونانية «المغنى المجيد» والمأثور أنه منشىء الأسرار الإليوسية.

(٢) فانيس Phanes رب يرمز فى الطقوس الأورفية إلى جوهر الحياة. وهذه هى المرة الأولى التى يرد فيها هذا الاسم فى الأدب القديم.

وكلاهما يبعثان قوى الهواء، وهذه العناصر تنشىء كل شىء وتنميه. ومن ثم فإن الشمس والقمر ليسا سبب بلوغ هيكل العالم الطبيعي بأجمعه حد الكمال فحسب، بل إن هيكل العالم كله كذلك - فيما يدّعون - يتكون من تلك العناصر الخمسة، وهي عنصر الروح والحرارة والجفاف والرطوبة وآخرها الهواء، نعددها كما نعدد في جسم الإنسان الرأس واليدين والرجلين وسائر الأعضاء.

١٢ واعتبر المصريون الأوائل الذين كانوا يتكلمون لسانًا مبينًا كلًّا من هذه العناصر إلهًا أطلقوا عليه اسمًا خاصًا مناسبًا لطبيعته، وهكذا أطلقوا على الروح اسمًا نترجمه بزيوس،ولما رأوا أنه أصل عنصر الحياة فى الكائنات الحية نظروا إليه كما لو كان أبًا لجميع الكائنات. وهم يقولون إن أشهر شعراء اليونانيين يتفق معهم فى هذا الاعتقاد حينما يشير إلى هذا الإله قائلا.

«أبو الناس والآلهة جميعًا»(١)

وأطلقوا على النار اسمًا نترجمه بهفايستوس، فقد اعتبروه إلهًا عظيما ذا فائدة جلى لكل شىء فى الإنتاج والنمو التام واعتبروا الأرض أشبه شيء بالرحم لكل ما ينبت وأطلقوا عليها اسم «الأم» meter ويقرب من ذلك أن اليونانيين أطلقوا على الأرض اسم ديميتير demeter، وقد حرّفت هذه الكلمة قليلا على مّر الأيام فقد كان اسمها فى غابر الأزمان جيميتير gemeter «أمنا الارض» ويشهد بذلك أورفيوس فى قوله:

«الأرض أم جميع الأشياء، واهبة الغنى والنماء»

---

(١)هوميروس، الإلياذة ٨، ٤٩ والتعبير شائع فى الملحمتين.

أما عن عنصر الرطوبة فيقال إن القدماء أطلقوا عليه اسم أوقيانيس ومعناه «الأم الرؤوم» ولكن بعض اليونانيين يرون أن الاسم في الأصل كان أوقيانوس: ويقول عنه الشاعر

«أوقيانوس مصدر الآلهة مع الأم تيثيس»[1]

ذلـك لأن المصريين يعتقدون أن أوقيانوس هـو نهر النيل عندهم وأن الآلهة نشـأت على حافتيه، ومصر هي البلد الوحيد في العالم كله الذي توجد فيه مدن كثيرة أنشأها الآلهة القدماء كزيوس zeus وهليوس helius وهرمس hermes وأبللو apollo وبان pan وإيليثويا eileithuia وكثيريـن غيرهم[2]. أما عن الهواء فيقال إنهم أطلقوا عليه اسـمًا يقابله فـي اليونانية أثينا athena وانهم اعتبروا أثينا ابنة لزيوس، وتصوروها عـذراء لأن الهواء فـي حالته الطبيعية نقي ويشـغل المحل الأرفع من العالم بأسـره، ومن هنا جاء في الأسـاطير أنها خلقت من رأس زيوس. وترجع تسـميتها بتريتوجينيا tritogeneia «الثالوثية المولد» إلى أنها تغير طبيعتها ثلاث مرات في السنة، في الربيع والصيف والشتاء. وقد أطلقوا عليها أيضًا اسـم جلاوكوبيس glaucopis [3] وليس ذلك لأنها – كما يتوهم بعـض اليونانيين – زرقاء العينين، فذلك في الحقيقة تعليل سـخيف، بل لأن الهواء يبدو في مظهـره أزرق اللون. ويقولون إن هذه

---

(١)هوميروس، الإلياذة ٨. ٣٠٢ تيثيس tethys هي زوج أوقيانوس.

(٢)عندما زار ديودور مصر كان كثير من البلاد يحمل اسمًا يونانيًا مثل ديوسبوليس وهليوبوليس وهرموبوليس وأبوللينوبوليس وبانوبوليس وغيرها.

(٣)هذه الكنية تترجم عادة في هوميروس «لامعة العين»

الآلهـــة الآنفة الذكر تطوف حول العالم كلـــه وتتجلى للناس أحيانًا فى شــكل حيوانات مقدســـة، وتتخذ أحيانًا أخرى مظهر الإنسان أو هيئة سائر المخلوقات. وهم يقولون إن هذا ليس حديث خرافة، بل إنه ممكن الحدوث لأن هذه الآلهة هى فى الواقع خالقة كل شىء. ولما زار الشاعر مصر وسمع هذا القصص من الكهنة، أورد الرواية السالفة فى موضوع ما من شعره كما لو كانت حقيقة واقعة فقال:

«وكذلك الآلهة، فى صورة أغراب من بلاد أجنبية»
«يتخذون مختلف الأشكال ويهيمون بين المدن»
«مطلعين على صلف الناس وبرهم سواءً[(١)]»

هذا مثل مما يرويه المصريون عن آلهة السماء التى تتمتع بالخلد.

١٣ ويقول المصريون إن مخلوقات أرضية ولدت من هذه الآلهة، وأنهـــا كانت فى الأصل فانية ولكنها لحكمتها ولما أســـدته للإنســـانية قاطبة من خير قد حظيت بالخلود. وأن بعضهم حكموا مصر، وقد اتخذ بعـــض هؤلاء لأنفســـهم ألقابًا مطابقة لألقاب الآلهة الســـماوية فى اللغة المصريـــة، فى حين اتخذ البعض الآخر أســـماء شـــخصية مثل هليوس helius وكرونوس kronus وريا rhea وكذلك زيوس zeus الذى يسمه البعض أمونا، وأضف إلى من سبق هيرا hera وهيفايستوس hephaestus وكذلك هســـتيا hestia وأخيرًا هرمس hermes. وهم يقولون إن هليوس «الشـــمس» الذى يحمل نفس اســـم الجرم السماوى كان أول ملوك مصر. إلا أن بعـــض الكهنة يذهب إلى أن هيفايســـتوس كان أول ملوك مصر.

(١) هوميروس: الأوديسية ١٧، ٤٨٥ – ٤٨٧

ذلك بأنه اكتشف النار، فارتقى المُلْك من أجل هذه المأثرة. فقد حدث أن أصابت صاعقة شجرة على التلال، وأخذت الغابة المجاورة تحترق، فيمم هيفايستوس شطرها، ولما كان الفصل شتاء فقد سرَّ بالنار سرورًا عظيما، ولكن لما خبت النار، طفق على الدوام يطعمها وقودًا، وفيما هو مُبْقٍ النار مشتعلة على هذا النحو، استدعى سائر الناس ليشهدوا ما نتج عنها من خير وبركة.

وتلاه في الحكم كرونوس الذى تزوج من أخته ريا وأنجب في رواية البعض أوزيريس وإيزيس، ولكن أكثر الناس يقولون إنه أنجب زيوس وهيرا اللذين حكما العالم بأسره لما أسديا من فضل وخير، وولد لهما خمسة آلهة كل واحد منهم في يوم من أيام النسيء الخمسة في السنة المصرية، وأسماء هذه الآلهة التي ولدت هي أوزيريس وإيزيس وطيفون typhon وأبوللو وأفروديتي aphrodite. وأوزيريس لو ترجم إلى اليونانية كان ديونيسوس وإيزيس قريبة الشبه جدًا من ديميتير، وقد تزوج منها أوزيريس، ولما ولي الملك بذل جهده في تحسين حال بني الإنسان.

١٤ وأول عمل قاما به هو منع الجنس البشرى من أكل بعضهم بعضًا. وكشفت إيزيس عن غلة القمح، والشعير، وقد كانا ينموان من قبل في الحقول مع سائر النباتات كيفما اتفق ولكن الإنسان لم يكن قد فطن إليهما بعد، أما أوزيريس فابتكر زراعة هذه الحبوب، وعندئذ غيَّر الناس جميعًا طعامهم عن رضًا لما وجدوا من لذة في طبيعة هذه النباتات التي كشفوا عنها، وكذلك لما بدا لهم من أنه من الأفضل

أن يقلعوا عن العنف والقسوة فيما بينهم. وللتدليل على كشف الغلال المذكورة يشير المصريون إلى التقليد المرعى بينهم من قديم الزمان، فحتى في وقتنا هذا يجمع الرجال في وقت الحصاد من بواكير سنابل القمح ويقفون إلى جانبها ضاربين بين صدورهم ومنادين باسم إيزيس. وهكذا يكرمون الآلهة لما قدمت لهم وما كشفت لهم في أول الأمر. وفي بعض المدن تحمل في عيد إيزيس سوق نبات القمح والشعير مع غيرها من الأشياء في الموكب إحياء لذكرى هذه الاستكشافات التي كشفت عنها الآلهة في البدء ببراعة. وإيزيس قد سنت أيضًا – فيما يقولون – القوانين التي تعامل الناس بمقتضاها فيما بينهم بالعدل وكفوا بموجبها عن استعمال القوة دون وجه حق وعن التطاول خوفا من العقاب. ولذلك كان اليونانيون الأقدمون يسمون ديميتير المقننة معترفين بذلك بأن الفضل يرجع إليها في أن استقرت لديهم القوانين أول الأمر.

١٥ وأسس أشياع أوزيريس – فيما يقال – مدينة ذات مائة باب في إقليم طيبة المصري، وقد أطلقوا عليها اسم أمه، ولكن بعض الأجيال المتأخرة أطلق عليها اسم ديوسبوليس «مدينة زيوس» وأسماها البعض الآخر طيبة. وتأسيس هذه المدينة ليس موضوع خلاف بين المؤرخين فحسب، بل بين كهنة المصريين أنفسهم، إذ يؤكد الكثيرون أن أشياع أوزيريس لم يؤسسوا مدينة طيبة، وإنما أسسها أحد الملوك(١) بعد ذلك التاريخ بزمن طويل. وسنورد تاريخ عصره في المكان المناسب. وتمجيدا لوالديهما زيوس وهيرا أقيم معبد امتاز بضخامته وباهظ تكاليفه، له

(١)جاء في الفصل الخامس والأربعين أن مؤسسها هو بوسيريس

محرابان ذهبيان، أما أكبرهما فلزيوس السماوى، وأما أصغرهما فلأبيهما زيوس الذى تولى ملك مصر ويدعوه البعض آمون.

أما الآلهة الآخر الذين سبق ذكرهم فقد أقيمت لهم محاريب من ذهب ورتبت لكل منهم طقوس، ونصب كهنة للقيام عليها. وكما كان الحال مع أوزيريس وإيزيس كذلك رتبت شعائر للآلهة التى ابتكرت الحرف والصناعات، أو اخترعت شيئًا نافعًا. ومن ثم فإنه بعد اكتشاف مناجم النحاس والذهب في إقليم طيبة، صنعت الأدوات التى استخدمها الناس فى قتل الحيوانات المفترسة، وفلاحة الأرض وفى التنافس فيما بينهم فى تمدين بلادهم، وإقامة التماثيل والمحاريب الذهبية الباهرة للآلهة. وكان أوزيريس محبًا للفلاحة أيضًا فقد ربى كابن لزيوس فى نيسا nysa فى بلاد اليمن بالقرب من مصر. ولذلك يسمى عند اليونانيين ديونيسوس وهو لفظ مشتق من اسم أبيه ومن اسم هذه البلدة. ويحدثنا هوميروس فى أناشيده عن نيسا باعتبار أنها تقع بالقرب من مصر وذلك حيث يقول:

«وهناك نيسا، جبل عال، كثيف الغابات»

«مبعدة فى فينيقية، وقريبة من جداول مصر»(1)

ويقولون إن أوزيريس وجد الكرم بالقرب من نيسا، وكذلك اكتشف طريقة عصر ثماره، فكان أول من ذاق النبيذ وأول من علم الناس كافة غرس الكرْم، واستخراج النبيذ، وقطف العنب وخزن النبيذ، وقد لاقى هرمس على يديه تكريمًا خاصًا دون سائر الآلهة لما أوتى من موهبة فذة فى استنباط ما عساه أن يكون ذا نفع فى حياة الناس جميعًا.

(1)الأناشيد الهومرية: ١ ، ٨-٩

١٦ ويرجع إلى هرمس الفضل فى الحقيقة فى تقويم لغة الإنسان، وفى أن أشــياء كثيرة وضعت لها أســماء بعد أن لم يكن لها اســم إلى ذلك الحين. وهو الذى ابتكر الحروف الهجائية، ونظم شــعائر العبادة، وتقديــم القرابين للآلهــة وكان أول من فطن إلى أفلاك النجوم، وطبيعة الأصوات وانســجامها، وأنشــأ حلبة المصارعة وعنى برشــاقة حركات الجسم وسلامة تكوينه، وصنع قيثارة ذات ثلاثة أوتار، كل يقابل فصلاً من فصول الســنة، لأنه تخيل ثــلاث درجات للصوت، الدرجة العالية والمنخفضة والمتوســطة، فالعالية تقابل الصيف، والمنخفضة الشــتاء، والمتوسطة الربيع، وعلّم اليونانيين ترجمة اللغات، ولذلك سمّوه هرمس «المترجــم» وبالجملــة، فإن أشــياع أوزيريس اتخذوا مــن هرمس كاتبًا مقدسًــا، وأطلعوه على جميع أســرارهم، واتبعوا على الأخص مشورته، وهو الذى اهتدى إلى شجرة الزيتون وليست أثينا كما يزعم اليونانيون.

١٧ ولما كان أوزيريس محبًا للخير تواقًا إلى المعالى فقد عبأ -فيما يقال- جمعًا غفيرًا لأنه عقد العزم على أن يجوب العالم كله ليعلم الجنس البشرى غرس الكرم، وبذر حبوب القمح والشعير، فقد اعتقد أنه إن يجعل النــاس يقلعون عن همجيتهم، ويأخــذون نصيبهم من حياة التمدن، يحظ بالخلود جزاء ما أســداه من خير عميم، وهــذا ما حدث فعلا. فلم يقتصر الشــكر على أولئك الذين نالوا نصيبهم من هذا الخير وقت كشفه، بل إن الأجيال التالية كذلك ما زالت - عرفانا لصنيعة هذه الآلهة فى كشف هذا الغذاء الجديد - تقدسهم كآلهة متجلية لا ريب فيها.

وبعد أن نظم أوزيريس الأمور فى مصر، سلَّمْ مقاليد الحكم كله -فيما يقال- لزوجه إيزيس، ونصب هرمس مستشارًا لها، لأنه بز جميع أصدقائهما فى السياسة والحكمة، ووكل إلى هرقل heracles قيادة الجيوش فى جميع أركان المملكة، لأنه يمت إليه بصلة القرابة، ولأنه كان موضع إعجاب الجميع لشجاعته وقوته، ونصب حاكمين يشرف أحدهما وهو بوسيريس bousiris على المناطق التى تنحدر نحو فينيقية وساحل البحر، ويشرف الآخر وهو أنطايوس antaeus على الأقاليم المجاورة للحبشة وليبيا. أما هو فغادر مصر على رأس جيشه ليقوم بحملته ومعه أخوه الذى يدعوه اليونانيون أبوللو. وأبوللو هذا هو الذى اكتشف فيما يقال شجرة الغار الذى يتوج به الناس جميعًا تماثيل هذا الإله على التخصيص. ويعزى إلى أوزيريس اكتشاف اللبلاب الذى يعتبر مقدسًا له كما يقدسه اليونانيون لديونيسوس، ويقولون إن اللبلاب يعرف فى اللغة المصرية بنبات أوزيريس وهو يفضل الكرم عند تقديم القربان، وذلك لأن الكرم يسقط أوراقه بينما اللبلاب يحتفظ بخضرته على الدوام. ولقد كان هذا رأى الأقدمين فيما يتعلق بسائر النباتات الدائمة الأخضرار، فقد قدسوا الآس لأفروديت والغار لأبوللو.

١٨ وعلى أى حال، فقد خرج -فيما يقال- مع أوزيريس فى حملته هذه ولداه أنوبيس anubis ومقدون macedon اللذان امتازا بالبسالة، وحمل كلاهما معدات تسترعى الأنظار، اتُخِذَت من حيوانات تتناسب جرأتها مع شجاعتهما، فقد اتخذ أنوبيس خوذته من جلد

الكلب، أما مقدون فقد أتخذ قناعًا يشبه وجه الذئب. ولهذا بُجِّلت هذه الحيوانـــات عند المصريين. وصحب أوزيريس أيضًا فى هذه الحملة بان pan الذى بالغ المصريون فى عبادته، فلم يُقِم له الوطنيون التماثيل فى كل معبد فحسب بل أنشأوا باسمه مدينة فى إقليم طيبة دعاها الوطنيون خِمــو chemmo ومعناها لو ترجمت إلى اليونانية «مدينة بان». ورافقه كذلك ممن لهم خبرة بشــئون الفلاحة مارون maron لمهارته فى غرس الكرم، وتريبتوليموس triptolemus لكفايته فى بذر القمح وسائر عمليات حصاده، ولما أعد كل شـــىء بدأ أوزيريس رحلته مخترقا الحبشة، بعد أن نذر للآلهة أن يرســل شعره إلى أن يعود إلى مصر. وهذا هو السبب فى أن ســنَّة إطلاق الشــعر قد انتشرت فى مصر إلى عصر متأخر، وفى أن الذين يســافرون إلى الخارج يطلقون شــعورهم إلــى أن يعودوا ثانية إلى بلادهم. وبينما كان أوزيريس فى الحبشـــة، قدموا له –فيما يقال– طائفة الســاتيرين satyri ذوى الحقاء المشعرة، لأن أوزيريس كان محبًا للمرح ومولعًا بالموســيقى والرقص. ولهذا السبب نفسه رافقه فى رحلته جمع غفير من المنشدين بينهم تسع غانيات يجدن الغناء وسائر الفنون وهــن اللائى يدعوهن اليونانيون مــوزاى musae «ربَّان الفنون»، وكان علــى رأســهن أبوللو ومن هنا ســمى «رائد ربات الفنــون» موزيجيتيس musigetes، وقد اســتصحب فى حملته أيضًا الساتيرين لمهارتهم فى الرقص والغناء وبراعتهم فى جميع فنون التســلية واللهو، لأن أوزيريس لم يكن محاربًا، ولم يحشــد جنــده للمواقع والأخطار، إذ تقبلته جميع

الشعوب إلهًا عن رضًا لما حباها من نعم، وفى الحبشة عَلَّم الناس شئون الفلاحة وأنشأ مدنًا جديرة بالذكر وترك وراءه رجالا يشرفون على شئون البلاد ويجمعون الخراج.

١٩ ويحكى أنه بينما كان هؤلاء فى شاغل من أمر رحلتهم فاض النيل على جانبيه إبّان ظهور الشعرى اليمانية، وهو الوقت الذى يرتفع فيه النهر عادة، وأغرق مساحة عظيمة من أرض مصر وبخاصة المنطقة التى تقع تحت إشراف بروميثيوس prometheus، وكاد بروميثيوس أن يبخع نفسه لفرط حزنه لأن كل من كانوا فى تلك المنطقة هلكوا على بكرة أبيهم. وأطلق على النهر اسم النسر aetus لسرعة تياره وشدة تدفقه. ولما كان هرقل رجلا شهمًا توّاقًا إلى الفتوة، فقد سد الثغرة بسرعة، وأعاد النهر إلى مجراه الأصلى، ولقد جعل شعراء اليونانيين من هذه الحادثة أسطورة بأن قالوا إن هرقل قتل النسر الذى كان ينهش كبد بروميثيوس. وأقدم اسم عرف لنهر النيل هو أوقيانيس ويترجم إلى اليونانية بأوقيانوس، ويقال إنه سمى نسرًا لما حدث من فيضان. وقد أطلق عليه فيما بعد اسم إيجيبتوسaegyptus نسبة إلى ملك قديم من ملوك البلاد ويشهد الشاعر على صحة ذلك فى قوله:

«وأرسيت سفنى المقوسة فى نهر إيجيبتوس»[١]

ويصب النهر فى البحر عند بلدة تسمى ثونيس thonis، وقد كانت هذه ثغر مصر التجارى فى العصر القديم. أما آخر اسم للنهر

(١)هوميروس: الأوديسية ١٤ ،٢٥٨.

وهو ما يعرف به الآن فقد اشــتق من اســم الملــك نيلوس nilus. وعلى أى حال، لما وصل أوزيريس إلى تخوم الحبشة ضبط مياه النهر بإقامة الســدود على جانبيه حتى لا تطغى المياه علــى الأرض وقت الفيضان أكثر مما ينبغي. وأقام فتحات تنساب المياه منها في رفق بمقدار، كلما دعت الحاجة. ثم واصل ســيره بمحاذاة ساحل البحر الأحمر[1] مخترقًا بــلاد العرب حتى وصل إلى الهند وأقاصي المعمورة. وفي الهند أنشــأ مدنًا ليســت بالقليلة، أطلق على إحداها اسم نيسا، فقد أراد أن يخلف هنــاك ما يخلد ذكرى البلدة التي نشــأ فيهــا بالقرب من مصر. وأدخل في نيســا من أعماق الهند زراعة اللبلاب، وهذه هي المنطقة الوحيدة فــي الهند كلها وما يجاورها من البلاد التي ينمو فيها هذا النبات إلى اليوم. ثم خلف وراءه في طول البلاد وعرضها شواهد كثيرة أخرى على إقامتــه، مما حمل الأجيال التالية من الهنود على التلاحي بشــأن هذا الإله، مدعين أنه هندي الأصل.

٢٠ واشــتغل أوزيريــس كذلك بصيد الفيلــة وترك وراءه في كل مكان شــواهد تشــير إلى حملته الخاصة هذه، ثم اخترق ســائر القبائل الأســيوية حتــى عبر الدردنيل فــي طريقه إلى أوربا. وفــي تراقيا قتل ليكرجوس lycurgus ملك البرابرة لأنه وقف في وجه مشروعاته، وترك وراءه مارون وقد صار إذ ذاك كهلا، ليشــرف على ما غرس من نباتات

(١)البحر الأحمر عند اليونانيين الأقدمين يعني البحر الأحمر كما نعرفه الآن والمحيط الهندي والخليج الفارسي

فـــى تلك البلاد، وأوعـــز إليه أن يبتنى مدينة باســـمه وهى التى تدعى مارونيــه maronea وتــرك من بعده ابنه مقدون ملــكًا على البلاد التى ســميت باســمه مقدونيا وعهد إلى تريبتوليموس العناية بشئون الفلاحه فى أتيكا، وأخيرًا وبعد أن جاب كل أنحاء المعمورة، حبا البشر بنعمة الحبوب الســهلة الزراعة والوفيــرة الإنتاج، وعلم ســكان المناطق غير الصالحة لزراعة الكرم صنع شراب مستخرج من الشعير[1] ولكنه لا يقل كثيرًا عن النبيذ نكهة وقوة. وعند عودته إلى مصر جلب معه من جميع البلاد أحســن الهدايا، وقد رفعه الجميع بلا اســتثناء لعظم نفحاته إلى مرتبة الخلود، وقدسوه كما يقدسون أرباب السماوات، ولما رفع من بين الناس إلــى مصاف الآلهة، رتبت له إيزيس وهرمس الأضاحى وســائر آيات التكريم، وأقاما له شــعائر ، واســتحثا كثيرًا من الطقوس السرية تمجيدًا لعظمته وقوته.

٢١ وبالرغــم مــن أن الكهنة قد احتفظــوا من قديم الزمان بقصة مــوت أوزيريس فى طى الكتمان، إلا أنــه بتراخى الزمان أظهر بعضهم العامة على هذا الســر. وأوزيريس فيما يقولون كان ملك مصر الشــرعى، وقتلــه أخوة تيفــون وقد كان قويًا فاجرًا،وبعد أن مزق جثته إلى ســتة وعشــرين جزءًا أعطى كل واحد من حلفائه جزءًا. لأنه أراد أن يشركهم جميعًا فى هذا الجرم، وظن أنه يجعل منهم بذلك أعوانًا وحراسًا أقوياء لعرشه. ولكن إيزيس أخت أوزيريس وزوجه ثأرت لمقتله بمساعدة ابنها

(١)ورد ذكر الجعة المصرية فى الفصل الرابع والثلاثين باسم زيثوس

حورس horus وقضت على تيفون وشركائه، واستولت على عرش مصر، وقد نشبت الموقعة بينهم على شاطئ النهر بجوار تلك القرية التى تعرف الآن باسم أنطايوس antaeus، وهى تقع فيما يقال تجاه بلاد العرب. وقد اشتق اسم هذه القرية من اسم أنطايوس[1] الذى كان معاصرًا لأوزيريس وقد نال عقابه على يدى هرقل. ومهما يكن من شىء، فقد وجدت إيزيس جميع أجزاء الجثة ما عدا السوءة. ولما كانت ترغب فى أن تخفى قبر زوجها، وأن تجعله فى الوقت نفسه موضع التقديس من جميع سكان مصر، فقد أنفذت رغبتها هذه على النهج التالى: يحكى أنها صبعت تمثالا من الشمع والعطور قريب الشبه من أوزيريس وفى حجمه، حول كل جزء من أجزاء الجسم، ثم استدعت الكهنة فئة بعد فئة وأخذت عليهم جميعًا العهد على أن لا يبوحوا لأحد ما بما اؤتمنوا عليه من سر، ثم قالت لكل فئة منهم على حدة أنها وكلت إليها أمر دفن الجثة، وجعلت تذكر كل فئة بالنعم التى أسداها أوزيريس، ودعتهم إلى دفن الجثة فى حرمهم الخاص بهم، وحضتهم على تقديسه كإله، وعلى تقديس أحد الحيوانات – أيا اختاروا – باسمه، على أن يقدس الحيوان طالما كان على قيد الحياة، كما كانوا يقدسون أوزيريس من قبل، فإذا نفق، عُدَّ جديرًا بأنت يدفن كما دفن أوزيريس. ولما كانت إيزيس تحرص على أن تدفع الكهنة إلى الاستمساك بهذه التشريفات بدافع من مصلحتهم الذاتية، فقد أعطتهم ثلث الأراضى المصرية فى

(١)فى الأساطير أنه ابن البحر والأرض، وكان يستمد قوته من أمه الأرض بملامسة قدمه لها، ولم يستطع هرقل أن يغلبه إلا بعد أن رفعه فى الهواء.

مقابل قيامهم بعبادة الآلهــة وخدمتها. أما الكهنة، فعرفانًا منهم بأنعم أوزيريــس على حد قولهم، وحرصًا منهم على إرضاء إيزيس، ويحفزهم فــوق ذلك دافــع من المصلحة الذاتية، فقد قامــوا بجميع ما أوحت به إيزيس. وذلك هو السبب فى أن كل جماعة من الكهنة تعتقد إلى يومنا هذا بأن أوزيريس قد دفن بين ظهرانيهم. ولا زالوا يقدســون الحيوانات التــى خصصت له من قديم الزمان، وعند موتها يســتأنف الحداد على أوزيريس من جديد عند قبورها، وخصص له العجلان المقدســان اللذان يســمى أحدهما أبيس apis، ويسمى الآخر منيفيس mnevis، وفرضت عبادتهمــا كأنهما إلهان على جميع المصريين على الســواء. وذلك لأن نفع هذه الحيوانات عظيم للغاية لمكتشفى الحبوب عند بذر الحب وفى سائر العمليات الزراعية ذات المنفعة العامة.

٢٧ ويقــال إن إيزيس أقســمت بعد مــوت زوجها ألا تتخذ لها بعــلًا مــرة أخرى، وقد ظلت إلــى آخر أيامها تحكم مصر بالقســطاس المســتقيم حتى بزت الجميع فى البر برعيتها. ولما انتقلت بدورها من بين البشــر، وضِعَت فى مصــاف الخالدين، ودفنت بمنفيس حيث يرى ضريحهــا إلــى وقتنا هذا قائمًا فى حرم معبد هيفايســتوس. ولكن يقول البعض أن جسدى هذين الإلهين ليسا فى منفيس بل يرقدان على الحدود بين الحبشــة ومصر فى جزيرة فى النيل بالقرب من الموضع الذى يقال له فيلاى philae ويطلق على هذه الجزيرة اســم «السهل المقدس» لذلك السبب. ويستشهدون على صحة دعواهم هذه بقبر أوزيريس الذى يقدسه

كهنــة مصــر أجمعين والذى مــا يزال قائمًا فى هــذه الجزيرة تحيط به ثلثمائة وســتون جرة يملأهــا الكهنة الموكلون بهذا الأمــر لبنا كل يوم باســمى هذين الإلهيــن. ومن أجل هذا حرم دخول هــذه الجزيرة على الغرباء. ويعتبر كل سكان إقليم طيبة وهو أقدم الأقاليم المصرية، القَسَم بأوزيريــس الراقد فــى فيلاى أغلظ الأيمان. ويقــال إن أعضاء أوزيريس التــى عثر عليها قد دفنت كمــا يليق بها بالطريقة التــى ذكرنا. ولكن إيزيس رأت أن سوءته – وقد ألقى بها تيفون فى النهر على حد قولهم لأن جميع أشــياعه أبوا أن يقبلوها – أهل للتقديس مثل سائر الأعضاء. فأقامت لها صورة فى المعابد واختصتها بالتبجيل، وجعلت تلك الصورة أثناء الطقوس الســرية وتقديم الضحايا لذلك الإله، محلا لأبلغ التبجيل وأوفر التقديس. ولذلك يقدســه اليونانيون الذين أخذوا عن مصر الشعائر السرية وعبادة ديونيســوس فى طقوسهم الخفية وشعائرهم السرية وعند تقديم الأضاحى لهذا الإله، وهم يسمون هذا العضو فاللوس phallus.

٢٣ وانقضــى –فيمــا يقال– بين عهد أوزيريــس وإيزيس وبين حكم الإســكندر –الذى أنشأ فى مصر المدينة التى تسمى باسمه – أكثر من عشــرة آلاف سنة. ولو أن بعض المؤرخين يذهب إلى أن الفترة بين هذين العهدين تقل قليلا عن ثلاثة وعشرين ألف سنة. ويقولون إن الذين يزعمون أن أوزيريس هو ابن زيوس وسميلى semele، وقد ولد لهما فى طيبة من أعمال بيوشيا، يلقون القول على عواهنه. ذلك بأنه عند ما زار أورفيوس orpheus مصر، اشــترك فى الشعائر الخفية والطقوس السرية

لديونيســوس. ولما كان أورفيوس صديقًــا لبنى قادموس، مكرمًا بينهم، فقد حرف قصة ميلاد ديونيســوس ســعيًا فى مرضاتهم، وتقبل الدهماء هذه الشــعائر الخفية والطقوس الســرية راضين، لجهلهم بالحقيقة من ناحيــة، ولأنهم أحبوا أن يعتبر الإله يونانيًا من ناحية أخرى. وقد لجأ أورفيوس إلى المعاذير فــى تحريفه للرواية الخاصة بمولد الإله وتغييره الطقــوس الخفية. فقد كان من بين أبناء قادموس الذى ولد فى طيبة من أعمــال مصر، ابنة تدعى ســميلى اغتصبها رجــل غير معروف فحملت منه، وبعد انقضاء ســبعة أشهر، ولدت طفلا اعتقد المصريون أن طلعته تشــبه طلعة أوزيريس. ومثل هؤلاء الأطفــال لا يولدون عادة أحياء، إما لأن الآلهــة لا ترضى بذلك، أو لعلها الطبيعة لا تســمح به. ولما أدرك قادموس ما حدث، وكان قد أوحى إليه أن يحيى شــعائر آبائه، غطى الطفــل الرضيع بوشــاح من ذهب، وقرب إليه الأضاحى التى تناســب مقامــه كما لو كان أوزيريس قــد تجلى للناس. وكذلك ألحق أبوه الطفل بزيــوس، تمجيــدًا لأوزيريس ومحوًا للعار الذى لحــق بابنته التى هُتك عرضهــا. وفى العصور المتأخرة أصبح أورفيوس، الذى ذاعت شــهرته العظيمة بين اليونانيين، لجودة إنشــاده وطقوســه السرية وقصصه عن الآلهــة، صديقًا حميمًــا لبنى قادموس، ولقى فى طيبة تقديسًــا فائق الحــد، وبعد أن وقف على عقائد المصرييــن الدينية، نقل مولد الإله القديم إلى عصر متأخر، وأنشأ إرضاء لبنى قادموس طقسًا جديدًا يبشر فيه المريدين بأن ديونيسوس هو ابن زيوس وسميلى. أما جمهرة الناس

فقد خدعوا تمامًا إما لجهلهم بالحقيقة أو لاعتقادهم أن أورفيوس أهل للثقة وعارف بهذه الأمور. وتقبل أكثر الناس بسرور الرأى القائل بإن الإله يونانى كما ذكرت آنفا، وتمسكوا بمناسك عبادته. وبعدئذ تناول القصاص والشعراء قصة ميلاد هذا الإله وملأوا بها المسارح فأصبحت عقيدة راسخة لا تتغير لدى الناس على مر الدهور.

٢٤ وبالجملة، فالمصريون يقولون إن اليونانيين ينحلون لأنفسهم أشهر الأبطال والآلهة بل ومستعمرات المصريين. فهرقل مثلا وهو مصرى الأصل استعان بقوته فى جوب مساحة شاسعة من المعمورة وأقام نصبًا على حدود ليبيا. ويحاول المصريون أن يجدوا فى القصص اليونانى أدلة على صحة هذه الدعوى، فبينما يجمع الناس قاطبة على أن هرقل بذل المعونة لآلهة أوليمبوس فى حربهم ضد المردة، يقول المصريون إنه من غير الممكن إطلاقا أن تخرج الأرض المردة فى الوقت الذى يقول اليونانيون إن هرقل ولد فيه أى فى الجيل السابق لحرب طروادة[1]، بل يرجع المصريون أنفسهم أن يكون ذلك قد حدث فى بدء الخليقة، ويقع ذلك فى حسابهم منذ أكثر من عشرة آلاف سنة، فى حين أنه قد مضى على حرب طروادة أقل من مائتين وألف سنة.

هذا إلى أن الهراوة وجلد السبع يناسبان هرقل إذا تخيلناه فى ذلك العصر القديم، ففى ذاك العصر لم تكن الأسلحة قد عرفت بعد وكان الناس يدافعون عن أنفسهم بالهراوة ضد أعدائهم، ويتخذون من جلود الحيوانات دروعًا واقية. ويقول المصريون إن هرقل بن زيوس ولكنهم يقولون إنهم

(١) الأناشيد الهومرية: ١، ٨-٩

لا يعرفون من أمر أمه شيئًا. أما ابن الكمينى alcemene فقد ولد بعد ذلك التاريخ بأكثر من عشـرة آلاف سنة وسمّى عند مولده ألكيوس[1] alcaeus ثم غيّر الاسم بعد ذلك إلى هرقل، لا لأنه اكتسب شهرته عن طريق هيرا كما يقول ماتريس matris [2] بل لأنه قلد هرقل القديم فى أسلوب حياته فورث شـهرته واسـمه. وتتفق أقوالهم مع ما أثر عند اليونانيين من قديم الزمـان من أن هرقل طهّر الأرض من الوحـوش الضاربة، وهى دعوى لا يمكن أن تلحق بحال ما ببطل ولد حوالى عصر الحروب الطروادية، حين كان الجزء الأكبر من المعمورة قد تحضر وانتشـرت فيه الزراعة وأنشئت المدن وانتشـر السـكان فى كل مكان. وعلى ذلك فإن دعوى تمدين العالم أحرى بأن تلحق بهرقل الذى عاش فى العصور القديمة حين كان لجموع الحيوانات المفترسـة الغلبة على الإنسان وخصوصًا فى مصر فى صعيدها الذى ما زال إلى وقتنا هذا بيداء يعمرها الحيوان المتوحش. ومن المعقول أن هرقل حينما اسـترعت هذه المنطقة انتباهه – وهى مسـقط رأسـه– طهّرها من الحيوانات المفترسـة وهيأها للزارعين. فاستحق من أجل هذه المنة المجد الإلهى. ويقول المصريون أن برسيوس perseus أيضًا ولد فى مصر. وأن اليونانيين الذين يروون فى أسـاطيرهم أن إيو Io قد مسـخت بقرة، جعلوا أرجوس argos مسقط رأس إيزيس.

٢٥ وبالجملـة فقـد اختلفـت الآراء كثيـرًا حول هذيـن الإلهين لأن الإلهة عينها تسـمى أحيانًا إيزيس وأحيانـًا أخرى ديميتر وأحيانًا

(١)الأناشيد الهومرية: ١ ، ٨ –٩

(٢)الأناشيد الهومرية: ١ ، ٨ –٩

تســموفوروس (المقننــة) وأحيانًا ســيلينى (القمر) وأحيانــا هيرا، بينما يدعوهــا البعــض الآخر بجميع هذه الأســماء. أما أوزيريــس فيدعى مرة ســيرابيس ومرة أخرى ديونيســوس ومرة ثالثة بلوتو ورابعة آمون ويسميه بعضهم زيوس ويظنه الكثيرون بان نفسه ويذهب البعض إلى أن سرابيس هو الإله الذى يدعوه اليونانيون بلوتو. ويقول المصريون أن إيزيس اكتشف أدواء كثيرة لتحسين الصحة فقد كانت ذات خبرة عظيمة فى فن الطب، ولذلــك فإنها تجد لــذة عظمى حتى بعد أن رفعت إلى مصاف الآلهة فى مــداواة بنى الإنســان. وفى الأحلام تبذل العون لمــن يهيبون بها، فتقيم بذلك الدليل الســاطع على تجليها الذاتى وحســن صنيعها لمن يلوذ بها من الناس. ويقول المصريون أنفســهم انهم يقيمون الدليل على زعمهم هذا بوقائع بيِّنة، لا بأساطير كالتى يزجيها اليونانيون. ويكاد العالم أجمعٍ[1] يشــهد للمصريين علــى صحة دعواهم، لأن النــاس ينافس بعضهم بعضا فــى تبجيلها لما تبديه من مظاهر التجلى فى مداواة المرضى، فهى تقف بجانب المرضى فى المنام، وتقدم لهم الدواء لدائهم وتأتى بالمعجزات فى شفاء الذين يسلمون إليها الأمر منهم، وقد شفي على يديها الكثيرون ممن استيأس منهم الأطباء لاســتعصاء دائهم، وكثيرٌ ممن فقدوا أبصارهم تمامًا أو اعتل منهم عضو من أجســامهم عادوا إلى حالتهم الســابقة لما فزعوا إليها، وقد اكتشفت أيضًا إكسير الخلود. ولما تآمر العمالقة على قتل ابنها حورس، ووجدت جثته هامدة تحت الماء، استطاعت بهذا الإكسير لا أن تبعثه حيا وتنفخ فيه الروح فحســب، بل جعلته ينال نصيبه من الخلود

(١)انتشرت عبادة إيزيس بامتداد نفوذ البطالمة، ولم تكد تخلو منها مدينة ذات شأن في حوض البحر المتوسط.

أيضًا. وقد اتفق المؤرخون على أن حورس كان آخر الآلهة من عالم الفانين الذين تبوأوا عرش مصر بعد أن (رفع أبوه أوزيريس إلى السماء) ويقال إن حورس، أحسن إلى الجنس البشرى بالكهانة والتطبيب.

٢٦ ويقـدر كهنة المصريين الفترة بين حكم هليوس «الشـمس» وبين غزو الإسـكندر لآسيا بثلاث وعشـرين ألف سنة تقريبًا. وقد حكم أقدم آلهتهم كما جاء فى أسـاطيرهم أكثر مـن مائتى وألف عام. وحكم مـن جاءوا بعدهـم فترة لا تقل عـن ثلثمائة عام. ولمـا كان هذا العدد الضخم من السـنين غير معقول، فقد حاول البعض أن يفسّـر الأمر بأنه قـد جرت العادة من قديم الزمان قبل أن يفطن الناس إلى حركة الأرض حول الشـمس، بأن تحسب السنة بدوران القمر، ولما كانت السنة على هـذا الاعتبار ثلاثين يومًا، فمن المعقـول أن يكون بعض الناس قد عاش مائتى وألف عام. ففى وقتنا هذا، والسـنة اثنتا عشر شهرًا، ليس بقليل من يعيش أكثر من مائة عام، ولهم فى أمر الذين اشتهروا بأنهم حكموا أكثر من ثلثمائة عام تفسير مشابه، فهم يقولون إن السنة فى تلك العصور كانـت مؤلفة من الأشـهر الأربعة التى يتألف منهـا الفصل الواحد من فصول السـنة – الربيع والصيف والشتاء. ولذلك يسمى بعض اليونانيين السنة «فصلا» والتقاويم السنوية «التقاويم الفصلية».

ولقد جاء فى الأسـاطير المصرية كذلـك أنه ظهر فى عهد إيزيس مخلوقات ذات أجسام متعددة، سماها اليونانيون المردة(١)، وقد صورهم

(١)المردة فى الأساطير اليونانية مخلوقات ذات أجسام هائلة لا متعددة، ويرى فوجل vogel أن النص غير متصل، وأن الأصل كان «سماها اليونانيون المردة، ويسميها المصريون..

المصريـون على جـدران معابدهم فى أوضاع عجيبة وقـد انهال عليهم أشـياع أوزيريس ضربًا. ولكن يقول البعض إن المردة ولدتهم الأرض يوم بدأت الكائنات الحية فى النشـوء. ويذهب البعض إلى أن تواتر القصة بأنهم ذوو أجسام عدة يرجع إلى تفوقهم فى القوة البدنية وإلى ما قاموا به من الاعمال، وقد أجمع الرواة على أنهم أبيدوا جميعًا فى حربهم مع زيوس وأوزيريس والآلهة الموالية لهما.

٢٧ وعلـى نقيـض العرف السـائد بين النـاس أجمعين، يجيز القانـون للمصرييـن أن يتزوجوا من أخواتهم، وذلـك، فيما يقال، لما أحرزتـه إيزيس بينهم من نجـح، فقد كانت حليلة لأخيها أوزيريس، ونذرت عند موته ألا تتخذ لها بعلا مرة أخرى. ثم ثأرت لمقتل زوجها، وظلت تحكم بالقسـطاس المسـتقيم. وبالجملة، فهى سـبب ما أصاب الناس أجمعين من نعم عظيمة عديدة. ومن أجل هذه الأسـباب عينها، جرى العرف على أن يكون للملكة من القوة والجد أكثر مما للملك، وأن يكون للمرأة بين سواد الناس حق القوامة على زوجها. ويتعهد العروس فـى العقد الذى يبرم بشـأن المهر أن يكون مطيعًا لعروسـه فى جميع الأمور.

وليـس بخاف علىَّ أن فريقًا من المؤرخين يجاهر بأن قبرى هذين الإلهين يوجدان فى نيسـا فى بلاد العرب، ومن هنا دعى ديونيسـوس «نيسـايوس» وأنه قد أقيم لـكل من هذين الإلهين نصب نقشـت عليه كتابات بالحروف المقدسـة. وقد نقشت على عمود إيزيس «**أنا إيزيس**

ملكة الأرض كلها، نشّأنى هرمس، ولن يستطيع أحد أن يتحلل مما سننت من شرائع، أنا الابنة الكبرى لكرونوس الرب الأصغر، أنا زوج الملك أوزيريس وأخته، أنا أول من كشف للناس عن الغلال، أنا أمّ الملك حورس، أشرق مع الشعرى اليمانية ومن أجلى أنشئت مدينة باسطوس، مرحى، مرحى يامصر، يامن ربيتنى». ويقال إنه نقش على عمود أوزيريس **«أبى كرونوس، أصغر الآلهة أجمعين، وأنا أوزيريس الملك الذى جاب على رأس جيشه الأرض كلها حتى أقاليم الهند المقفرة، والمناطق التى تنحدر نحو الشمال حتى منابع نهر الإيستر[1] ثم قفل راجعًا عبر مناطق أخرى حتى وصل إلى المحيط. أنا الابن الأكبر لكرونوس، وحيث إننى نجمت من بيضة ناصعة شريفة، فقد أصبحت بذرة تضارع النهار منبتًا. وليس فى المعمورة إقليم لم أبلغه مسبغًا على الناس أجمعين الأنعم التى كنت قد اكتشفتها».** ويمكن قراءة هذا القدر فقط فيما يقال، من النقوش التى على العمودين. أما الباقى وهو الجزء الأكبر منها فقد محته يد الزمان. ولقد تضاربت عند جمهرة الناس الروايات حول هذين الإلهين وذلك لأن الكهنة بعد أن وقفوا على القول الحق فى هذين الإلهين حفظوا السر فى طى الكتمان ولم يشاءوا أن يطلعوا الجمهور على حقيقة الأمر، بحجة أن الأخطار قد تنتاب كل من عساه أن يطلع العامة على سر هذين الإلهين.

(١)هو نهر الطونة أو الدانوب.

 ويقــول المصريــون إن جاليات كثيــرة خرجت من مصر منذ ذلك العهد، وانتشرت في جميع أنحاءِ المعمورة، فقد قاد بيلوس belus الذى ظنه الناس ابن بوزيدون poseidon وليبيا، جالية إلى بلاد بابل، وبعد أن أنزلها على شــاطئ نهر الفــرات، نصّب فيها كهنة على نمط كهنة مصر، معفين مــن الضرائب ومن جميع الواجبات العامة، وهؤلاء الكهنة، ويســميهم البابليون الكلدانيين، يرصــدون النجوم مقتفين فى ذلك آثار كهنة مصر، وهم فلاسفة طبيعيون وفلكيون. ويضيفون إلى ذلك أن الجاليــة التــى نزحت من مصر أيضًا تحت قيــادة دناؤس danaus أسســت مدينة أرجوس argos التى قد تكون أقدم المدن اليونانية. وأن الكولخييــن colchi فى بــلاد بنطش pontus واليهــود فيما بين بلاد العرب وسوريا جاليتان نزحتا عن مصر واستقرتا هناك، ذلك بأن هذين الشعبين قد توارثا من قديم الزمن عادة ختان الأطفال عند الولادة، وهى عــادة مأخوذة عن مصر. وهم يدعون أن الأثينيين أيضًا جالية من مدينة ســايس sais فى مصر، ويحاولون أن يقيمــوا الدليل على هذه الصلة. فالأثينيون وحدهم. دون سائر اليونان يسمون المدينة «أستى» asty وهو اســم مأخوذ من مدينة «أســتى» فى مصر. ناهيك بأن الجمعية الأثينية خضعت لنفس نظام الطبقات الســائد فى مصر. فقد قســمت الأمة إلى ثــلاث طبقات الأولى يدعى أفرادها الأشــراف eupatridea ويتمتعون بأوفــى نصيب من التعليم وهم أهل لأســمى التكريم فــى أعين الناس،

كما هو الأمر بالنسـبة للكهنة فى مصر. والطبقة الثانية تتكون من ملاك الأرض geomoroi وقد كان عليهم أن يتزودوا بالسلاح وأن يحاربوا من أجـل بلادهم، مثلهـم فى ذلك مثل الطبقة التـى تدعى فى مصر طبقة المزارعيـن، وهى التى تغذى البلاد بالجنـد. أما الطبقة الثالثة فيندرج تحتهـا العمـال demurgoi الذيـن يقومون بالحرف الآليـة، ويؤدون الأعمـال الضروريـة للمجتمع، والطبقة التى تقابل هـذه عند المصريين ضربت عليها نفس هذه التكاليف.

هذا إلـىٍ أن بعض قـادة الاثينيين كانوا مـن المصريين، فبتيس Petes [1] مثـلا، والـد مينيسـثيوس MENESTHEUS الذى اضطلع بنصيب فى الحِرب ضد طرواده، كان مصريًا بلا جدال، وصار فيما بعد مواطنـا ثم ملكا فى أثينا [ومثل هذا يقـال عن كيكروبس CECROPS الـذى [2]] كان ثنائى الوطن، يونانيا ومصريا فى نفس الوقت، فقد كان ثنائى الجسم أيضًا، جزء حيوانى والنصف الآخر إنسانى.

٢٩ وكذلك يدعون أن إرخثيوس ERECHTHEUS وهو مصرى المولـد صار ملكا على أثينا، ويقيمون علـى ذلك براهين كثيرة نقتطف منها ما يلى: لما حدث ذلك الجفاف الشديد الذى يجمعون على وقوعه، وعـم كل أنحاء المعمورة تقريبًـا فيما عدا مصر لطبيعة أرضها الخاصة، وأتى على الحبوب وعلى أعداد غفيرة من الناس، استورد إرخثيوس وقد

(١) يسمـه هوميروس فى الإلياذة ٣، ٥٥٢ بيتوس

(٢) العبارة التى بين المعكفين غير واردة فى النص، ولكن الوصف ينطبق على كيكروبس أول ملوك أثينا كما جاء فى الأساطير، وكان نصفه الأسفل فى هيئة ثعبان.

كان علــى صلة وثيقة بمصــر مقادير وفيرة من القمح من مصر إلى أثينا، فنصــب الأثينيون هذا المنعم الذى لاقــوا الخير على يديه ملكا عليهم، ولما ولى المُلك أدخل طقوس عبادة ديميتير DEMETER فى إليوسيس ELEUSIS واســتحدث طريقتهــا الصوفية ناقلا مراســم هذه الطرق من مصــر. وقد تواتر القول بأن ديميتير قــد تجلت فى أثينا فى ذلك العهد على زعم أن الحبوب التى سميت باسمها قد أدخلت حينذاك. وقد ظن الناس أن ديميتير اكتشف فى ذاك الحين البذور كما اكتُشفت أول الأمر. أمــا الآثينيون فيقرون من ناحيتهم بأنه لما أتى الجفاف على غلتهم فى الحقــول فى عهد إرخثيوس، وقعت ظاهرة تجلى ديميتير بينهم مقترنة بنعمــة نضوج القمــح، ويضيفون إلى ذلك أن طقــوس عبادة هذه الإلهة وطرقها الصوفية قد أدخلت فى إليوثيس فى ذلك العهد، وأن الآثينيين والمصريين يتشــابهون فى كيفية تقريب الضحايا والقيام بمراسم العبادة التقليدية. ويقولون كذلك أن اليومولبيداى EUMOLPIDAE من سلالة كهنة مصر، وأن الكيروكيس CERYCES [1] من سلالة حملة النواويس، وأن الآثينيين وحدهم من بين سائر اليونانيين يحلفون بإيزيس وهم أشبه ما يكونون بالمصريين فى أفكارهم وعاداتهم، ويأتى المصريون بكثير مما شاكل ذلك من البراهين التى تقوم فيما أرى على النخوة القومية لا على أســاس من الحقيقة، وذلك ليدعموا دعواهم القائلة بأن أثينا مســتعمرة مصريــة، يغريهــم بذلك بعد صيت هذه المدينــة. وبالجملة فالمصريون

(١)اليومولبيداى أى سلالة يومولبوس، والكيروكيس أى السفراء، عائلتان من الأشراف فى أثينا وكل إليهما الإشراف على أمور الدين.

يدَّعون أن أسلافهم قد أنفذوا جاليات عديدة إلى كثير من بقاع المعمورة وقد كان منشأ هذه الدعوى سببين: رفعة شأن ملوكهم، وكثرة عدد سكان البلاد. وحيث إنهم لا يقيمون حجة دامغة على صحة دعواهم هذه، ولا يشهد مؤرخ ثقة بصحتها، أرى أن هذه الروايات ليست جديرة بالتسجيل. ولنكتف بهذا القدر من أساطير المصريين بشأن آلهتهم، حرصًا من على تناسق أجزاء قصتنا، وسنحاول أن نورد باختصار فيما يلى وصف أرض مصر ونيلها وسائر ما هو أهل للذكر فيها.

٣٠ تمتد مصر بوجه عام من الشمال إلى الجنوب وقد عرفت بأنها تفوق سائر الأقطار كثيرًا، لحسن موقعها وجمال مناظرها، وتحميها من ناحية الغرب الصحراء الليبية، التى تموج بالحيوانات المفترسة وتمتد إلى مسافات شاسعة. ولقد كانت قلة مياهها وندرة وجود جميع أنواع الغذاء فيها سببًا فى أن اجتيازها لم يكن مضنيًا فحسب، بل خطرًا جدًا أيضًا. أما من ناحية الجنوب، فتحميها شلالات النيل والجبال المتصلة بها. إذ من المتعذر الملاحة فى النهر أو سلوك الطريق البرى من بلاد التروجوديتيس[1] TROGODYTES فى أقاصى بلاد الحبشة وهى مسافة ٥٥٠٠ ستاد، إلا إذا كان المرء مزودًا بعتاد ملكى أو ركب بالغ الفخامة. أما المناطق التى تقع فى الجبهة الشرقية فيحمى بعضها النهر، وتحيط بالبعض الآخر الصحراء، والأرض ذات المستنقعات التى تسمى «الجب» BARATHRA ذلك بأنه توجد فيما بين جوف

(١)تروجوديتيس أى سكان الكهوف وقد عرفهم سترابون ١ ، ٢ ، ٣٤ بقوله «قبيلة من الأعراب تعيش على ساحل البحر الأحمر فيما يلى مصر والحبشة».

سوريا (غور سوريا) ومصر بحيرة ضيقة جدًا ولكنها عميقة وطولها حوالى ٢٠٠ ستاد تدعى بحيرة سربونيس SERBONIS[1] يمكن فيها الخطر لكل من يجوب هذه المنطقة دون سابق معرفة بها، فعرض الماء فيها ضئيل كالشريط، وتحيط بها الكثبان الرملية من جميع الجهات. وعندمايطرد هبوب الرياح الجنوبية، تغطى سطح الماء بكميات كبيرة من الرمال، وهذه تخفى تحتها سطح الماء وتجعل شكل البحيرة مشابهًا للأرض اليابسة المحيطة بها، بحيث لا يمكن تمييزها مطلقًا. ولذلك باد الكثيرون من غير العارفين بطبيعة هذا الأقليم، مع جيوش بأسرها، كلما حادوا عن الطريق المطروقة، ذلك أن الرمال حينما يسير عليها الناس، تنهار من تحتهم بالتدريج وتخدع عابرها فى شىء من المكر السيىء، حتى إذا ما استشعروا الخطر المحدق، أخذوا فى شد أزر بعضهم ولات ساعة نكوص أو هرب. فكل من تقتنصه هذه اللجة لا يستطيع العوم لأن الوحل يعوق حركة الجسم، ولا هو بمستطيع أن يخوض فيها وليس لقدميه منها متكأ ركين، فالرمال كما ترى قد امتزجت بالماء، وأخذ كل من طبيعة الآخر، وهكذا أصبحت هذه المنطقة غير صالحة للسير أو الملاحة. ولذلك فكل من يرتاد هذه البقعة يهبط إلى أعماقها ولا يجد ما يتشبث به ليعينه على النجاة، لأن الرمال على الحواف تنهار بمن يتعلق بها، وقد أطلق على هذه السهول اسم مناسب لطبيعتها التى وصفنا، إذ سميت «الجب».

(١)تسمى الآن بردويل نسبة إلى بلدوين ملك بيت المقدس الذى مات فيها فى الحروب الصليبية سنة ١١١٨.

٣١ الآن وقــد وصفنا المناطــق الثلاث التي تحمى مصر من البر، بقى أن نضيف إليها وصف الجهة الباقية فالجهة الرابعة التي يلاطمها المــوج على طول الســاحل كلــه تقريبــا دون مرفا ما يحميهــا «البحر المصرى»[1] إذ الملاحة على طول هذا الشــاطىء طويلة مضنية، والرسو عليه متعذر للغاية. فلا يوجد فيما بين برايتونيوم PARAETONIUM فى ليبيا وإيوبى IOPE [2] فى فلســطين وهى مســافة بحذاء الشــاطىء طولها حوالى ٥٠٠٠ ســتاد تقريبًا، ميناء واحد صالح لرسو السفن سوى ميناء فاروس PHAROS وبغض النظر عن هذه الاعتبارات، فإن شريطا من الرمل يمتد على طول الســاحل المصرى لا يمكن رؤيته لغير الملاح المحنك. ولذلك نرى المسافرين الذين يتوهمون أنهم قد نجوا من أخطار البحر ويندفعون نحو الشاطىء فى غفلتهم متهللين يجدون سفينتهم وقد ارتطمت يااليابســة بغتة فتحطمت ويفجعون فيهــا. ويحدث أحيانا ألا يســتطيع بعض الملاحين تمييز هذا الشــاطىء الواطىء فتتحطم السفينة على غزة منهم، إما فى منطقة مســتنقعات ذات برك آســنة، وإما على بقعة جرداء.

فمصر إذن محصنة تحصينًا طبيعيًا من جميع الجهات كما أســلفا القول، وهى مســتطيلة الشــكل، طول شاطئها ٢٠٠٠ ســتاد وتمتد من الداخل حوالى ٦٠٠٠ ستاد، وقديمًا كانت تبز سائر أرجاء المعمورة جدًا فى كثافة السكان، أما فى عصرنا هذا فالشائع أنها لا تقصر عن أيها فى

(١)يعنى البحر المتوسط فى المنطقة التى يلامس فيها شواطىء مصر
(٢)هى يافا الآن.

هــذا المضمــار. وكان فيها في العصر القديم ما يزيد على ١٨٠٠٠ مدينة وقرية ذات شــأن كما ثبت في الوثائق المقدسة، أما في عصر بطليموس بــن لاجوس[١] فقد عُدَّ منها أكثر مــن ٣٠٠٠٠ [٢] ما زال أكثرها مزدهرًا إلى وقتنا هذا.

ويقال إن تعداد السكان في العصر القديم كان حوالى ٧ مليون نفسًا وهو لا يقل عن ذلك فى أيامنا هذه. ويرجع الفضل إذن إلى كثرة الأيدى العاملة فيما يحكي من أن الملوك القدماء قد ابتنوا منشآت عظيمة باهرة قامت شاهدًا خالدًا على مجدهم. وسنورد بعد قليل وصفًا دقيقًا لها، أما الآن فسنتكلم عن طبيعة نهر النيل ومميزات البلاد الطبيعية.

٣٢ يجــرى النيــل من الجنوب إلى الشــمال، وينبع من بقعة لم ترها عينان، لأنها فى أقاصى الحبشة فى منطقة لا يمكن لشدة حرارتها أن تطأهــا قدمانٍ. وهو أكبر الأنهار قاطبة، وينحنى انحناءات شــديدة فــى طريقه مخترقًا هذه الرقعة الطويلة من الأرض. فينحرف مرة ناحية بــلاد العرب شــرقا، ومرة ناحيــة ليبيا غربًا، وطول مجــراه من جبال الحبشــة إلى مصبه فــى البحر بما فى ذلــك منحنياته حوالى ١٢٠٠٠ ســتاد. ويصغر حجم حوض النهر الجنوبى باطراد لانســياب الماء إلى كلتــا القارتين[٣]، ويتفرع عن النهر فروع عديدة يتجه بعضها نحو ليبيا

(١)هو بطليموس الأول، حكم مصر من سنة ٣٢٣-٢٨٥ ق،م، وقد زار مصر فى عهده المؤرخ هيكاتيوس، فلعل ديودور قد نقل عنه ما أثبت من إحصاءات.

(٢)قال هيرودوت ٢ ، ١٧٧ إن عدد المدن المصرية فى عهد أمازيس (القرن الساس ق.م) كان عشرين ألف مدينة . فلعل ديودور قد أضاف إليها القرى الشهيرة.

(٣)كان الجغرافيون المتقدمون يجعلون من النيل الحد الفاصل بين آسيا وأفريقية.

هذه تتشــربها الرمال البعيدة الغــور، ويجرى البعض الآخر فى الناحية المضادة نحو بلاد العرب، وهذه تتحول إلى مستنقعات واسعة وبحيرات عظيمة تعيــش حولها قبائل عديدة. ويكون عــرض النهر عندما يدخل البلاد المصرية ١٠ ستاد، ويكون أحياناً أقل من ذلك عرضا. ولا يجرى فى طريق مستقيمة، بل ينحنى شتى الانحناءات، فينحرف ساعة نحو الشرق، وســاعة نحو الغرب، وأحيانا ينكفى، نحو الجنوب فى اتجاه مضاد لاتجاه مجراه الأصلى تمامًا. ذلك أن المرتفعات تمتد على جانبى النهر، وتغطى جزءًا كبيرًا من ضفتيه، وتتخللها ممرات ووديان صخرية ضيقة. فعندما يصطدم النهر بهذه المرتفعاتٍ، ينكِفى بسرعة إلى الوراء فى الأرض المنبســطة، وبعد أن يجرى شوطا طويلا إلى الجنوب، يعود ثانيــة إلى مجراه الأصلــى. ولقد كانت هذه المميــزات التى ينفرد بها النيل دون سائر الأنهار سبباً فى أنه النهر الوحيد الذى ينساب فى مجراه دونما عنف أو موج دافق، اللهم إلا فى المنطقة التى تسمى الشلالات. ففى هذه المنطقة – وطولها حوالى عشــرة ستاد– ينحدر النهر انحدارًا شديداً، وتحــده من الجانبين صخــور عالية تجعل منه برزخــا ضيقًا، وهى مليئة بالنتوءات والشــقوق، وفيها كثير من الصخور، وتدفعه هذه العوائق بشــدة إلــى الــوراء فى اتجاه مضاد لاتجاهه الأصلى، فتكــون فى النهر دوامات كبيــرة، يمتلىء مركزها بالزبد، وهى نتيجة اندفاع الماء إلى الوراء. وتلقى هــذه الدوامات فى قلوب مرتادى هذه البقــاع روعة بالغة. والواقع أن تيار النهر ســريع وقوى إلى حد أنه يبدو كالســهم المنطلق. وفى أثناء الفيضان حيثما تختفى هذه الصخور تحت ســطح الماء، ويغمر فيض المياة الزاخر

كل هذه المنطقة الصخرية، ينحدر بعض الملاحين على الشـلالات عندما تهـب الريـاح مضادة لهم. ولكـن لا يمكن لأحد أن يصعَّـد فى النهر عبر الشلالات لأن قوة تدفق الماء تعلو على كل مجهود إنسانى. وهناك شلالات أخرى كثيرة ولكن أكبرها ما يقع على الحدود بين الحبشة ومصر.

٣٣ ويضـم النيل بين مياهه أيضًـا جزرًا عديدة، كثير منها فى الحبشة، إحداهما عظيمة الاتساع، وتسمى مروى meroe، فيها مدينة شـهيرة تسمى باسم الجزيرة، وقد انشـأها قمبيز وأطلق عليها اسم أمه مـروى meroe، وشـكل هذه الجزيرة فيما يقال مثـل الدرع الطويلة، وتفـوق سـائر جزائر هذه البقـاع حجمًا بكثير، فطولها ٣٠٠٠ سـتاد، وعرضها ١٠٠٠ ستاد. وبها كثير من المدن أشهرها مروى. وتجثم كثبان رملية ممتلئة على طول ساحل الجزيرة المواجه لليبيا الذى تتكسر عليه أمواج النهر، أما السـاحل المواجه لبـلاد العرب فتعلوه صخور عاتية. وبالجزيـرة مناجم ذهب وفضـة وحديد ونحاس، هذا إلى كميات وفيرة من الخشب الأبنوس وشـتى أنواع الأحجار الكريمة. وبالجملة، فالنهر يكوّن جزرًا كثيرة إلى حد يشكك السامع فى صدق ما يروى عن عددها. فبغض النظر عن الأرض التى يحيط بها النيل فى المنطقة التى تسـمى «الدلتا» يوجد أكثر من سبعمائة جزيرة يفلح بعضها الأحباش والنسانيس وسائر أنواع الحيوان، فهى لذلك غير صالحة لسكنى الإنسان.

وعندمـا يتفـرع النيل فى مجراه فـى مصر إلى فـروع كثيرة يكوّن المنطقة التى تسـمى نسـبة إلى شـكلها «بالدلتـا» (المثلث)، أما ضلعاه فالفرعان المتطرفان، بينما يكوّن قاعدته البحر الذى يبتلع مياه النهر من

مصباته العديدة. فالنيل يصب فى البحر من فروع سبعة، أولها من الشرق الفرع البيلوزى والثانى التانيتى ثم المنديسى ثم الفاتنيتى ثم السِبِنّيتى، ثم البولبيتى وأخيرًا الفرع الكانوبى ويسـمـيه البعض الفره الهرقلى(١). وهناك مصبـات أخرى صناعية ولكن ليس بنا من حاجة إلى ذكرها. وتقوم على رأس كل من هذه المصبات مدينة مسـوّرة يشـطرها النهر شطرين، وتمتد منها على جانبى المصب قنطرتان، وقلاع فى مواقع صالحة.

وتخرج من الفـرع البيلوزى قناة صناعية تصل إلى الخليج العربى والبحر الأحمر، وأول من قام بهذا العمل نيخو(٢) بن بسماتيك، ثم تلاه دارا الفارس الذى سـار فى هذا المشروع شوطا بعيدًا ثم تركه ولم يتمه، فقد حذره بعضهم بأنه إذا أتم حفر القناة إلى الخليج فإنه يكون سببًا فى إغراق مصر، فقد أوهموه أن مستوى سطح البحر الأحمر أعلى من مستوى سطح مصر(٣). وقد أتم بطليموس حفر القناة فى عصر متأخر، وأقام عليها فـى أكثر المواضع صلاحية هويسًـا فريدا فى نوعـه، يفتحه كلما أراد المرور ثم يغلقه بعد ذلك مباشرة، وقد تمت هذه العملية بنجاح. ويسمى

---

(١) سمى هيرودوت ٣، ١٧ الفرع التانيسى بالفرع السايسى والفرع الفاتنيتى بالفرع البوكولى، وقد يكون هذا هو فرع دمياط الآن. أما الفرع البولبيتى فهو فرع رشيد.

(٢) حكم نيخو مصر من سنة ٦٠٩ إلى سنة ٥٩٣ ق.م. وحكمها دارا من سنة ٥٢١ إلى سنة ٤٨٥ ق.م.

(٣) هذه القناة وهى قناة السويس، تتفرع على النيل شمالى بوباسطيس ثم تسير فى وادى الطميلات إلى البحيرات المرة، ثم تنحدر إلى الجنوب وتتصل بالبحر الأحمر. ويرى فريق من المؤرخين أنها ترجع إلى الأسرة التاسعة عشرة ويرى البعض الآخر أنها ترجع إلى الأسرة الثانية عشرة.

فرع النهر الذى ينساب فى هذه القناة باسم حافرها بطليموس وتقع على رأسها مدينة تدعى أرسنوى arsinoe.

٣٤ وتشبه الدلتا جزيرة صقلية فى الشكل، وطول كل من ضلعيها ٧٥٠ ستاد وقاعدتها التى يحف بها البحر طولها ١٣٠٠ ستاد، ويخترقها كثير من القنوات الصناعية، وهى تشمل أخصب أراضى مصر. لما كانت تربتها طميية وسهلة الرى، فهى تنتج محصولات وفيرة من جميع الأصناف. فالنهر يلقى عليها فى فيضانه السنوى بغرين جديد، ويسهل على سكانها رى مساحتها كلها بوساطة الاختراع الذى استحدثه أرخميديس السيراكيوزى، ويسمى نسبة إلى شكله بالحلزون[١]

ولما كان تيار النيل هينًا، وكان النهر يحمل مقدارًا كبيرًا من جميع أنواع التربة، ويجعل من الأراضى الواطئة بركًا، فقد تكونت بذلك مستنقعات شديدة الخصوبة تنمو فيها النباتات ذات السيقان المختلفة الطعم، والفاكهة والخضروات التى لا تنمو فى غير هذه البلاد. وكلها ينمو بكثرة تسد حاجة المعوز والمريض. وهى لا تمدهم بغذاء مختلف الألوان دانى القطوف وافر لكل من يحتاج إليه فحسب، بل يقوم عليها كذلك غير قليل من ضرورات الحياة. فالبشنين مثلا، الذى ينمو فيها بكثرة، يصنع منه المصريون خبزهم الذى يقيمون به أودهم. وينمو فيها كذلك القيبوريوم[٢] بوفرة، وهو يثمر الحبوب المعروفة بالباقلى القبطى.

---

(١)يعنى الطنبور.

(٢)القيبوريوم ثمرة الباقلى القطبى **nymphaea nelumbo**

وفيها كذلك أنواع أخرى كثيرة من الأشجار، منها «الفارسية»[1] التى استوردها الفرس من الحبشة عندما غزاها قمبيز وفاكهتها حلوة المذاق جدًا. أما شجر الجميز فيثمر نوع منه التوت. ويثمر نوع آخرٍ فاكهة تشبه التين، وهذه مثمرة على مدار السنة، ويجد فيها الفقراء ملاذا سهلا من عوزهم. أما الفاكهة المسماة بالتوت البرى فتقطف أيام التحاريق، وهم يتخذونها عُقْبةً للذيذ مذاقها. ويستخرج المصريون من الشعير شرابًا لا يقل عن النبيذ نكهة، يسمونه (زيثوس zythos جعة). ولا يستخدمون فى إيقاد مصابيحهم زيت الزيتون، بل زيتًا مستخرجًا من نبات يسمى كيكى kiki (زيت الخروع)، وينمو فى مصر بوفرة كثير من النباتات الأخرى التى تفى بحاجات الإنسان الضرورية. ولكن يطول بنا القول لو تحدثنا عنها.

٣٥ وهناك نوعان متميزان عن سائر الحيوانات الغريبة الشكل التى تعيش فى النيل، هما التمساح وفرس البحر. أما التمساح فبعد أن يكون صغيرًا جدًا يكبر إلى أن يصبح ضخمًا للغاية. فبيضته فى حجم بيض الأوز وبعد أن يفقس يكبر إلى أن يبلغ طول التمساح ست عشرة ذراعًا. وهو يعمر كالإنسان، وليس له لسان[2]. وقد عملت الطبيعة على حماية جسمه بمهارة فائقة، فجسمه كله مكسو بقشر شديد الصلابة، وزوِّد فكاه بأسنان عديدة، وله نابان أكبر حجمًا بكثير من الأسنان. ولا يأكل لحم الإنسان فحسب، بل لحم كل ما يقرب النهر من دواب

---

(١) شجرة اللبخ.

(٢) للتمساح لسان صغير جدًا.

الأرض. وهو قوى العضة، ويصيب بجراح بالغة إذا أنشب مخالبه، ولا يمكن مداواة الجسم فى موضع عضته. وكان المصريون يصيدونه فى غابر الأزمان بالشص وقد علقت بها قطعة من لحم الخنزير. ولكنهم عدلوا عنها من قديم الزمن إلى الشباك المتينة يصيدونه بها كما يصيدون بعض أنواع الأسماك. ويصيدونها أحيانًا من قواربهم بسهام حديدية يوالون إطلاقها على رؤوسها. وهناك عدد لا يحصى من التماسيح فى النهر وفى البحيرات المتاخمة له إذ أنها كثيرة التوالد وقلما يقتلها الناس، والعرف الذى جرى عليه أكثر أهل البلاد هو أن يعبدوا التمساح كإله، وحيث إن لحمه لا يؤكل فإن صيده عديم الجدوى تمامًا للأجانب. ولما كان فى تكاثره ضرر بالإنسان، فقد جاءت الطبيعة بعلاج ناجع فى ذلك، فالحيوان الذى يسمونه إخنيومون ichneumon (النمس) يروح مهشمًا البيض الذى يضعه التمساح على حافة النهر، ومما يدعو إلى أشد العجب، أن النمس، وهو لا يأكل هذا البيض ولا يستفيد منه فى أى وجه، يثابر على أداء هذه الخدمة الطبيعية والضرورية لخير الإنسان.

أما الحيوان المسمى «بفرس النهر» فلا يقل طوله عن خمس أذرع، وله حوافر مشقوقة كحوافر الثور، وله ثلاثة أنياب على كلا الجانبين وهى أكبر من أنياب الخنزير البرى، أما أذناه وذيله فتشبه آذان الخيول وذيولها وصوته يحاكى صهيل الفرس، ويماثل جسمه بوجه عام جسم الفيل، وجلده أخشن من جلود سائر الحيوان. ولما كان البحر حيوانًا بحريًا وبريًا على السواء، وهو يقضى نهاره فى الماء غائصًا فى أعماقه، أما الليل فيقضيه على الأرض، يرعى القمح والتبن، فلو أنه كان كثير

التوالد، يلد كل عام،لأتى على حقول مصر كلها. ويجتمع لصيده جمهرة من الرجال، يقذفونه بحراب حديدية. فعندما تقع عليه أعينهم، يلتفون حوله بقواربهم ويصيبونه بجروح عديدة بآلة حادة كالأزميل مثبتة فى حربة حديدية. ثم يربطون أحد هذه الحراب المغروسة فى جسمه بطرف حبل، ثم يرخون له من الحبل وينتظرون إلى أن تنهك قواه لكثرة ما ينزف من دم. ولحمه خشن عسر الهضم، وليس من أعضائه الداخلية ما يؤكل، سواء فى ذلك الأحشاء[1] والمصارين.

٣٦ وفى النيل بجانب ما ذكرنا من حيوان أعداد لا تحصى من مختلف أنواع الأسماك، فهو لا يمد السكان بكميات وفيرة من الأسماك الطازجة فحسب، بل لهم منه معين لا ينضب للتمليح، وبالجملة، يفوق النيل سائر أنهار العالم منفعته للإنسان. فهو يبدأ فى الارتفاع فى الانقلاب الصيفى ويظل فى زيادة مطردة إلى زمن الاعتدال الخريفى ويجلب الطمى الحديث طوال هذه الفترة، ليخصب الأرض البور، وحقول الحبوب، وبساتين الأشجار زمنا يتوقف طوله على مشيئة الزراع. ذلك أن مياه النهر تنساب بلطف، ففى استطاعتهم أن يوجهوها إلى حقولهم بوساطة سدود منخفضة ثم يخلون لها السبيل بسهولة بقطع هذه السدود كلما عنت لهم فى ذلك فائدة. وفى الحق جعل النيل الزراعة سهلة ميسرة إلى حد أن الفلاحين يستريحون من عملهم فى انتظار جفاف الأرض، وبعد بذر الحب يستخدمون ماشيتهم فى غرسه فى الأرض، ثم يعودون إلى الأرض بعد أربعة أو خمسة أشهر للحصاد. ويستعمل بعض

(١) يعنى بالأحشاء القلب والكبد والرئتين والكليتين.

الــزراع محاريث خفيفة لحرث أديم الأرض بعد ريها، وبعد ما يجمعون حصادهم أكداسا بقليل من النفقات والمشقة. فعند سائر الشعوب تحتاج جميع الأعمال الزراعية على العموم إلى مشــقة كبيرة وتكاليف باهظة، وفــي مصر وحدها لا تتطلب هذه الأعمال ســوى مجهود تافه وتكاليف ضئيلة. والكروم، وهي تروى بنفس الطريقة، تدر كميات وفيرة من النبيذ أما الســكان الذين يتركون الأرض بعد جفافها مرعى لماشيتهم فيجنون ثمار ذلك، لأن الماشــية نظرا لخصوبــة المرعى مرتين في العام، وتجز أصوافها مرتين كذلك.

وتبدو ظاهرة فيضان النيــل غريبة للذين يرونها رأى العين، وهي أمر غير معقول عند من تصلهم عن طريق الســماع فحســب. فبينما تبدأ كل أنهــار العالم فــي الهبوط في الانقلاب الصيفي ثم تأخذ في الارتفاع باطــراد طــوال فترة الصيف التالية، يبدأ نهــر النيل وحده في الارتفاع في ذلــك الوقــت ويزيد يوما بعد يوم إلى أن يغمــر في النهاية كل مصر تقريبا. وكذلك يســلك فيما بعد أســلوبا عكسيا فيأخذ في النقصان يوما بعــد يوم لمدة تضاهي الفيضان، حتى يعود إلى منســوبه الأصلي. ولما كانت الأرض ســهلا مســتويا، والمدن والقرى والمســاكن الريفية قائمة على تلاع صناعية، فإن منظرها حينئذ مشــابها لجزر السيكلاديس[1]. أما الحيوانات الأرضية المفترســة فيقضي النهــر على معظمها ويغرقها بمياهــه، وبعضها ينجــو بحياته بلجوئه إلى المرتفعات. أما الماشــية فتُعلف إبان الفيضان في القرى والمساكن الريفية حيث يخزن لها العلف

(١)مجموعة من الجزائر الصغيرة تحيط بجزيرة ديلوس

من قبل. أما عامة الشعب فتجنح طوال وقت الفيضان ـ وقد ارتفع عنها عبء العمل ـ إلى اللهو. فتجعل من أيامها كلها أعيادا وتتمتع ولا حرج بكل أسباب السرو.

ولقد كان ما يعلق على ارتفاع النيل من الأهمية حافزا للملوك إلى إقامة «مقياس النيل» في منف، وعهد في إدارته إلى خبراء يقيسون ارتفاعه بالضبط، وينفذون الرسائل إلى المدن يبلغون الناس فيها بمقدار ارتفاع النهر بالأذرع، وميقات انخفاضه بالضبط. وحينما يعلم الشعب بهذه الطريقة أن النهر توقف عن الارتفاع، وأخذ في الهبوط، يذهب عنه انزعاجه، ويعرف سلفا مقدار المحصول القادم بالضبط. ذلك بأن المصريين يحتفظون بسجلات أثبتت فيها ملاحظاتهم في ذلك الأمر مدى حقب طويلة.

٣٧ ولما كان فيضان النيل ظاهرة مستعصية التفسير، فقد أخذ الكثيرون من الفلاسفة والمؤرخين على عاتقهم مهمة تعليلها، وسأتحدث عن ذلك باختصار، فلا نستطرد استطرادا طويلا، ولا نهمل إثبات أمر يتوق الناس كلهم إلى معرفته. وبالجملة فمشكلات فيضان النيل، ومنابعه وصبه في البحر، وسائر هذه المميزات التي انفرد بها النيل ـ أكبر أنهار المعمورة ـ عن بقية الأنهر، قد تركها بعض المؤرخين دون أن يجرؤوا على أن يقطعوا فيها برأي، في حين أنهم يسترسلون أحيانا في القول عن بعض الأمطار الشتوية. وانبرى البعض الآخر للتحدث عن هذه المسائل ولكنهم حادوا كثيرا عن جادة الصواب. فقد لجأ هيلانيكوس

Hellanicus وكادموسCadmus مثــلا، وكذلك هيكاتيوسHecataeus ومن لف لفهم من الكتاب ــ وكلهم ينتمون إلى المدرســة القديمة[1] ـ إلى التعليلات الخرافية. أما هيرودوت، وقد كان باحثا ومدققا للغاية، وواسع المعرفــة بالتاريخ، فقد حاول حقا تفســير هذه الظاهــرة. ولكن نظرياته ـ كمــا ثبت الآن – متناقضة. وأحجم كزينوفون Xenophon وثوكيديديس Thucidides اللــذان نالا إعجاب الناس لدقة رواياتهما عن وصف أرض مصر كلية أما إيفورسEphorus وثيوبومبوس Theopompus[2] اللذان أوليا هذه المســائل كل عنايتهمــا، فقد كانا أقل الكتاب إصابة لمحجة الصــواب. ولا ترجع خيبة هؤلاء الكتــاب أجمعين إلى الإهمال بل إلى خصائص هذه البلاد الفريــدة. فمنذ العصور القديمة إلى عهد بطليموس الملقب بفيلادلفوس[3]، لم تطأ قدم يوناني واحد بلاد الحبشــة، بل لم يبلغ أحد منهم حدود مصر الجنوبية، فكل هذه المناطق لم تكن معروفة للأجانب وكانت خطره للغاية. والملك الســالف الذكر هو أول من أرسل

(١)المدرسة القديمة هي طبقة الكتاب الذين عنوا بكتابة التاريخ نثرا وقد أولوا الأساطير اهتماما كبيرا ولم يكن لهم نصيب كبير من ملكة النقد. هيلانيكوس المتلييني ولد سنة ٤٨٠ وعاش حوالى ٨٥ سنة، وهو أول من قوم تاريخ بلاد اليونان. كادموس الملطي لا يعرف عنه شيء على وجه التحقيق. هيكاتيوس الملطي ولد سنة ٥٥٠ ق.م وزار مصر حوالى عام ٥٢٦ ق.م وقد ألف كتابين أحدهما فى وصف العالم، والآخر فى الأساطير اليونانية ومات حوالى سنة٤٧٦ ق.م

(٢) ثيوبومبوس ألف كتابا فى تاريخ اليونان أكمل به تاريخ ثوكيديدس إلى عام ٣٩٤ ق.م وكتابا فى تاريخ فيليب المقدوني.

(٣)هو بطليموس الثاني حكم مصر من سنة ٢٨٥ ـ ٢٤٦ ق.م تزوج بأخته أرسنوى وسمى بعد موته فيلادلفوس أى «المحب لأخته».

جيشا من اليونانين لغزو بلاد الحبشة، ومنذ ذلك الحين تصلنا معلومات أكثر دقة عن هذه البلاد.

هذه إذن أسباب جهل المؤرخين المتقدمين. أما عن منابع النيل، والمنطقة التى ينبثق منها النهر، فلم يدع أحد حتى كتابة هذه السطور رؤيتها، ولم يورد أحد وصفًا لها عن لسان قوم ادعوا رؤيتها. وهكذا ما برحت هذه المسألة مجالا للتخمين والتكهن. ويذهب كهنة المصريين إلى أن النيل يستمد مياهه من الأوقيانوس الذى يحيط بالمعمورة، ولكن لا نصيب لقولهم هذا من الصحة. فهم يحلون مشكلة بمشكلة أخرى، ويزجون بمثابة برهان حُجة تفتقر فى ذاتها إلى برهان دامغ. وتقول طائفة من التروجوديتيس Trogodytes وهى التى نزحت من المنطقة الداخلية لشدة حرارتها وتسمى قبيلة البولوجيينBolgii، أن هناك من الظواهر ما يشير إلى أن أنهارًا كثيرة تلتقى فى مكان واحد وتكون مجرى النيل، وأن هذا هو السبب فى أنه أكثر الأنهار المعروفة إخصابًا. ويميل المرء إلى الركون إلى قول سكان الجزيرة المعروفة بمروى Meroe لأنهم أبعد ما يكونون عن التماس عللٍ تناسب ما يتصورون من فروض، ولأنهم كذلك أقرب الناس إلى هذه المنطقة موضوع بحثنا. ولكنهم فضلا عن أنهم لا يقطعون برأى فى هذه المسائل، سموا النهر أستابوس Astpus ومعناها فى اليونانية « مياه من الظلام»، مطلقين عليه اسمًا يتفق مع ما يعوزهم من دقة وملاحظة هذه البقاع وشدة جهلهم بها. والرأى عندنا أن أقرب التعليلات إلى الحقيقة أبعدها عن التكهنات.

ولست بجاهل أن هيرودوت[1] في تفرقته بين ليبيا التى تقع إلى الشرق من النهر وليبيا التى تقع فى غربه، عزا إلى القبائل الليبية المعروفة بالنسامونين Nasamones[2] البحث عن مصدر النهر. وقال إن النيل ينبع من إحدى البحيرات ثم يسير مسافة طويلة جدًا فى الأرض الحبشية، ولكن لا يمكن أن نثق لأول وهلة بقول الليبيين، ولا كان ما قالوه صدقًا، ولا بقول مؤرخ تفتقر روايته إلى برهان.

٣٨ والأن بعد أن تكلمنا عن منابع النهر ومجراه، سنحاول أن نورد أسباب فيضانه. يقول طاليس Thales[3]، وهو أحد الحكماء السبعة، إن الرياح التجارية تهب فى اتجاه مضاد لمصب النهر. فتمنعه من أن يصب فى البحر. وإن هذا هو السبب فى ارتفاع النهر، وفيضانه على أرض مصر وهى سهل منخفض. ولكن، بالرغم من وجاهة هذا التفسير، فمن السهل إظهار بطلانه، فلو أن هذا التعليل كان صحيحًا لفاضت للأسباب عينها كل الأنهار التى تواجه الرياح التجارية مصباتها. وحيث إن هذا لا يحدث فى أى جزء من المعمورة، فيجب أن نولى وجهنا ناحية أخرى بحثًا وراء السبب الحقيقى للفيضان. ويذهب الفيلسوف الطبيعى أناكساجوراس Anaxagoras إلى أن سبب الفيضان هو ذوبان الثلوج فى الحبشة، وقد شايعه فى رأيه هذا تلميذه الشاعر يوريبيديس Euripides حيث يقول:

(١) هيرودوت ٢، ٣٢.
(٢) قبائل رحل تعيش حول خليج سدرة فى شمال أفريقية.
(٣) طاليس الفيلسوف اليونانى عاش فى القرنين السابع والسادس قبل الميلاد.

« لقد هجر أطيب أمواه الأرض

« النيل الذى ينبثق فائضًا

من أرض الأحباش ذوى البشرة السوداء

« كلما ذابت الثلوج..

والواقع أن هذا التفسير لا يحتاج إلى كبير عناء لتنفيذه، فمن الجلى أن سقوط الثلوج فى الحبشة أمر مستحيل لشدة الحرارة هناك. وعلى العموم، فليس فى هذه البقاع جليد أو برد أو أى علامة من علامات الشتاء وخصوصًا فى وقت فيضان النيل. وحتى إذا سلمنا بأن هناك ثلوجًا متراكمة، فالدليل مازال قائمًا على بطلان هذا التعليل، إذ من المسلم به أن كل الأنهار التى تصدر عن ذوبان الثلوج تثير تيارات باردة من الهواء، وتكوّن ضبابًا، هو النهر الوحيد الذى لا تعلوه الغيوم الكثيفة، ولا الرياح الباردة ولا الضباب.

أما هيرودوت[1] فيقول إن منسوب النيل الطبيعى هو ذلك الذى يبلغه أيام الفيضان. ولكن يحدث فى الشتاء أن الشمس عندما تسامت الصحراء الليبية، تبخّر كثيرًا من مياه النهر فيقل ارتفاعه عن منسوبه الطبيعى. وعندما يأتى الصيف، وتنتقل الشمس فى مدارها إلى الشمال، تجفف وتقلل مياه أنهار بلاد اليونان وسائر الأقطار التى تناظرها موقعًا[2] وإذن فظاهرة فيضان النيل فى رأيه لاتدعو إلى العجب، لأن النهر لا يرتفع فى حرارة الصيف، بل ينخفض فى الشتاء للسبب المتقدم.

(١)هيرودوت ٢ ،٢٥.

(٢)أى التى تقع على نفس خط العرض الذى تقع عليه بلاد اليونان.

وينبغـــى لنا الآن أن نقول ردًا على هيرودوت أنه كما أن الشـــمس تبخر فى الشتاء مياه النيل، يتحتم أن تبخر مياه أنهار ليبيا كذلك، وتخفض من منسوبها. ولما كانت هذه الظاهرة لا تلاحظ فى أى مكان فى ليبيا، فمن الجلى إذن أن مؤرخنا يلقى الكلام على عواهنه، هذا إلى أن فيضان أنهار بلاد اليونان فى الشـــتاء لا يرجع إلى بعد الشـــمس عنها، بل إلى كثرة هطول الأمطار فى هذا الموسم.

٣٩ يقــول ديموقريطس الأبــدرى[1] إن الثلوج لا تكســو المناطق الجنوبية كما يّعى يوريبيديس وأناكســاجوراس، بل المناطق الشــمالية كما هو واضح لكافة الناس. وإن أكداس الثلج المتراكمة فى الشمال تظل متجمدة إبان الانقلاب الشــتائى. أما فى الصيف فتفتت الحرارة الثلوج فتصير كله فى حالة ذوبان. وهذه تكوّن سحابًا كثيفًا فى المناطق الأكثر ارتفاعًا، حيث يصعد البخار بكثرة، وهذا الســحاب تحمله ـ كما يقول ـ الرياح التجارية إلى أن يلاقى أعلى جبال العالم، وهى جبال الحبشة فى زعمه، وهنا حين يصطدم الســحاب بقوة بهذه الجبال يسقط أمطارًا غزيــرة، وهى التى تســبب فى رأيــه فيضان النيل، فى موســم الرياح التجارية بالضبط.

من الســهل دحض هذه النظرية كذلك بمراجعــة ميقات الفيضان بالدقة، فالنيل يبدأ فى الأرتفاع فى الانقلاب الصيفى قبل أن تبدأ الرياح التجارية فى هبوبها، ويأخذ فى الانخفاض بعد الاعتدال الخريفى، بعد أن يتوقــف هبــوب الرياح بكثير. فــإذا تحطمت النظريــة المعقولة أما

(١)معاصر لسقراط وهو أول من ألف من اليونانيين الموسوعات، وصاحب النظرية الذرية.

الحقائق الدقيقة المستقاة من التجربة، وجب علينا مع اعترافنا بنبوغ الفيلسوف أن نحجم عن الأخذ برأيه. وإنى أذكر حقيقة أخرى تلك هى أن الرياح التجارية كما ترى، تهب من الغرب كما تهب من الشمال ذلك أن ما يسمى بالرياح التجارية ليس الرياح الشمالية فحسب أى البورياس والأباركتياس بل الرياح الشمالية الغربية كذلك التى تهب من موضع غروب الشمس صيفاً[1]، وكذلك ما يقرّره من أن جبال الحبشة هي فى الواقع أعلى جبال العالم، لا يفتقر إلى دليل فحسب، بل هو أيضاً ليس أهلا لما يجدر بالحقيقة الملموسة من تصديق[2].

ويتحفنا إيفورسEphorus بأطرف التفسيرات، ولكنه فى سعيه وراء الحجج المقبولة فى روايته،يخطئ محجة الصواب كلية. يقول إيفورس إن تربة مصر كلها طميية ومسامية مثل حجر الخفان مملوءة بمسام كبيرة ممتدة، تمتص عن طريقها كميات وفيرة من الماء، وتختزنها طوال فصل الشتاء، أما فى فصل الصيف فتفرزها فى كل مكان، كجداول من العرق، وهذه تسبب زيادة منسوب النهر. ويبدو لنا أن هذا الكاتب لم يفحص بنفسه طبيعة أرض مصر، ولم يتحر عنها بشئ من الدقة من أولئك الذين خبروا طبيعة هذه البلاد. فأولا، إذا كان النيل يتلقى زيادته من مصر نفسها فليس هناك إذن ما يدعو إلى فيضانه فى مجراه الأعلى حيث ينساب النهر من أرض صخرية جرداء. والواقع من الأمر أن النهر يفيض قبل أن يصل إلى مصر فى مجراه الممتد إلى

(١)أى الشمال الغربى

(٢) يعنى أنه ليس لدينا دليل ملموس على شدة ارتفاع جبال الحبشة.

أكثر من ستة آلاف استاد من أراضى الحبشة. وثانيًا، لو كان قعر النهر أكثر انخفاضًا من مسام التربة الطميية، لبدت المسام إذن على سطح الأرض وأصبح من المتعذر أن تحتفظ بهذه الكميات الكبيرة من الماء فى باطنها. أما إذا كان النهر أعلى من مستوى المسام، تعذر تسرب المياه من المستوى المنخفض إلى مياه النهر العالية. وبالجملة، فهل يعقل أن ما تفرزه الأرض من مسامها يمكن أن يزيد من مياه النهر إلى حد أنه يغمر كل مصر تقريبًا. وإنى أجاوز قول إيفورس الفاسد عن التربة الطميية والمياه التى تخزن فى مسامها فبطلانه بين جلى. ففى آسيا مثلا قد كون نهر مياندر مساحة كبيرة من التربة الطميية ولكن لم تلاحظ فيما يتصل به من ظاهرات، ظاهرة واحدة تشابه فيضان النيل. وكذلك الحال بالنسبة لنهر أخيلوس فى أكرنانيا ونهر كيفيسوس فى بيوشيا الذى ينبع من فوكيس، فإن كليهما كونا مساحات واسعة من التربة الطميية وهما يقدمان برهانًا قاطعًا على فساد نظرية المؤرخ. وعلى أى حال، فلا ينبغى لأحد أن يطلب الدقة عند إيفورس بعد أن رأينا أنه لا يعبأ كثيرًا باستقراء الحقيقة فى كثير من المسائل.

٤٠ وحاول بعض فلاسفة منف أن يأتوا بتفسير لظاهرة الفيضان، فجاء تفسيرهم غير معقول بالرغم من تعذر دحضه، وقد أخذ به الكثيرون. فهم يقسمون الأرض إلى ثلاث مناطق، إحداها تكونَ عالمنا المسكون هذا، والثانية تكون فيها الفصول بعكس ما تكون عندنا تمامًا، أما الثالثة وتقع بين الاثنتين فلا يسكنها الناس لشدة حرارتها. فلو أن النيل يفيض فى الشتاء لكان من الجلى أنه يتلقى هذه المياه الزائدة من

المنطقة التى نعيش فيها لأن الأمطار الغزيرة تسقط عندنا فى هذا الفصل علـــى الخصوص. ولكن فيضـــان النهر، على العكس من ذلك، يكون فى فصل الصيف، فمن المرجح إذن أن أعاصير الشـــتاء تتجمع فى المنطقة المقابلة(الجنوبية) وينســـاب ما يزيد من مياه هذه المنطقة البعيدة إلى عالمنا هذا، وهذا فيما يقولون هو السبب فى أنه ما من أحد استطاع أن يصل إلى منبع النيل لأنه ينســـاب فـــى المنطقة المقابلة لنا، ثم يجرى إلينـــا عن طريق المنطقة غير المكونـــة. ولقد اتخذوا من فرط عذوبة مياه النيل شـــاهدًا على صحة دعواهم، لأن مـــاء النهر يلطف فى مجراه فى المنطقة الحارة بتأثير الحرارة، وهكذا كان النيل أعذب الأنهار جميعًا، إذ من الطبيعى أن الحرارة تلطف جميع السوائل.

وهنـــاك حجة قريبة لدحض هذا الوهم، فمـــن الجلى أنه من غير المعقول أن ينســـاب نهـــر مصعدًا فى عالمنا المعمـــور هذا، من المنطقة المعمورة المقابلة لنا، خصوصًا إذا أخذنا بنظرية أن الأرض كروية الشكل. وحتى إذا تعسف المرء فى استدلالاته، وضرب بالحقيقة السافرة عرض الأفق، ما أفســـحت طبائع الأشياء عن الطريق لهذه النظرية. وبالجملة، فإنهم يتوهمون أنه بوضعهم العالم الخلاء بين المنطقتين المعمورتين، قد أتـــوا بنظرية لا تقبـــل التجريح، إذ أبعدوا بينها وبين البحث التجريبى الدقيق. ولكن ينبغى لمن يتعسف فى نظرياته فى بعض المسائل أن يأتى بالدليل عليها من الحقيقة الواقعة، أو يقيم وبراهينه على فروض تدعو إلى التصديق لأول وهلة. فكيف تأتى لنهر النيل أن يكون النهر الوحيد

الـــذى يجرى من ذلك العالم المعمور المقابـــل إلى عالمنا؟ فمن المعقول أن يكـــون هنـــاك أنهار أخرى تماثله كما هو الحـــال عندنا. هذا إلى أن الأسباب التى يعزون إليها عذوبة مياه النهر سخيفة جدًا. فلو أن النهر اكتسب عذوبة مياهه بفعل الحرارة، لما كان كما هو الآن مخصبًا يغذى جميع أنواع الأسماك والحيوان. ذلك أن جميع الأمواه التى تتغير طبيعته بتأثيـــر العنصر الحرارى تفقد قدرتها على إنماء الكائنات الحية. وإذن، فحيث إن طبيعة النيل تنقض تمامًا نظرية تأثير مياهه بالحرارة فيجب أن نعتبر ما أوردوا من أسباب للفيضان فاسدًا.

ويقـــر أوينوبيديـــسOeneopides[1] الخيـــوى أن الماء الجوفى يكون باردًا فى الصيف، أما فى الشـــتاء فيكون على العكس حارًا كما نرى بوضوح فى ماء الآبار العميقة، ففى منتصف الشـــتاء يكون ماؤها أبعـــد ما يكون عن البرودة، أما فى حمارّة الصيف فيســـتنبط منه ماء بـــاردا جدا. فمن المعقول فى رأيه إذن أن ينخفض النيل فى الشـــتاء ويقل ماؤه. حيث تســـتهلك حرارة الأرض أكثر مائه، وليس فى مصر أمطـــار، أمـــا فى الصيف، وليس هناك من اســـتهلاك للماء فى باطن الأرض فيزيد النهر ماشاء. ونقول فى الرد على هذه النظرية إن كثيرًا مـــن أنهار ليبيا التى تناظر نهر النيل فـــى موقع مصباتها ومجراها، يشـــابه مجراه، لا تفيض بالرغم من ذلك مثله، بل بالعكس تزيد فى الشـــتاء وتنخفض فى الصيف، فهى تقـــدم برهانًا على عبث محاولة خنق الحقيقة بالمنطق المعقول.

(١)فلكى ورياضى عاش فى القرن الخامس ق.م

أمــا أجاثارخيديــسAgatharchides[1] الأكنيدى فقد كان أقرب إلى لإصابة الحقيقة من سواه، فهو يقرر أن الأمطار تهطل كل عام على جبال الحبشــة مســتمرة من الانقلاب الصيفى إلى الاعتدال الخريفى، فمن المعقول إذن أن ينقص النهر فى الشــتاء لأنه يســتمد مياهه حينئذ من ينابيعه فقط، أما فى الصيف فيزيد بسبب الأمطار التى تتدفق إليه. فإذا لم يكن أحدُ اســتطاع إلى وقتنا هذا أن يعلل أســباب ســقوط هذه الأمطار فليس ذلك ـ فيما يقول ـ بمبررفى رفض رأيه الشخصى هذا لأن الطبيعة تأتي بكثير من المتناقضات، ومن المتعذر على الإنسان أن يبيّن أســبابها بدقة ويؤيد نظريته ـ فيمــا يعتقد ـ ما يحدث من ظاهرات فى بعض أصقاع آســيا. فعلى حدود ســكيثيا Scythia عند اتصالها بجبال القبج Caucisus يحدث ســنويًا ـ بعد انقضاء فصل الشــتاءــ أن تنهمر كميات بالغة من الثلوج أيامًا كثيرة متتالية، ويحدث فى بعض الفصول أن يسقط البردُ على سفوح الهند الشمالية فى حجوم وكميات لا يتصورها العقل .وتهطل الأمطار باستمرار بالقرب من نهر هيداسيبسHedaspes فــى أول فصــل الصيف، وبعض أيام قلائل يتكرر الأمر نفســه فى بلاد الحبشــة. وهذه العوامل الحيوية التى تحيط دائمًا بالمنطقة كلها تسبب المناخ الشتوى هناك، فليس إذن ما يدعو إلى العجب ـ فى زعمه ـ من أن الأمطار تهطل باســتمرار فوق جبال الحبشــة، وهى أكثر ارتفاعًا من مصــر، فتنحدر فى فصل الصيــف، وتزيد فى مياه النهر، خصوصًا وأن أهل تلك البلاد يؤيدون هذه الحقيقة الواضحة. فبالرغم من أن ما يقررونه

(١)مؤرخ وجغرافى عاش فى القرن الثانى ق.م.

يناقض ما خبرنا، إلا أنِ ذلك لا يدعو إلى تكذيبهم ، فالرياح الجنوبية وهى عندنا رياحُ إعصارية، تسبب فى الحبشة جوًا صحوًا، والرياح الشمالية فى أوروبا عاتية، فى حين أنها فى تلك البلاد بليلة عليلة.

والآن، فبالرغم من أننا نستطيع أن نسوق أدلة أخرى ردًا على كل من جاء بتعليل لظاهرة فيضان النيل، إلا أننا سنكتفى بما أسلفنا، حتى لا نعدو ما عقدنا العزم عليه بادىء ذى بدء من حدود الاختصار.

ولما كنا قد قسمنا هذا الكتاب ـ لطوله ـ إلى قسمين حرصًا منا على تناسب أجزاء هذا السفر، فسننهى هنا هذا القسم من تاريخنا هذا.

وسنورد فى الجزء التالى بقية تاريخ مصر، مبتدئين بالكلام عن ملوك مصر وعن الحياة فى مصر فى أقدم العصور.

الجزء الثانى

٤٧ إن الكتاب الأول من تاريخ ديودور ينقسم ـ لضخامته ـ إلى جزءين. يشتمل الجزء الأول منهما على مقدمة للعمل كله، وعلى معتقدات المصريين فى نشأة الكون، وتكوين العالم فى البدء، وفى الآلهة التى أنشأت فى مصر مدنًا ونسبتها إلى نفسها، وعلى آرائهم فى الأناسى الأول، وفى أسلوب الحياة فى العصر القديم، وفى عبادة الآلهة الأزلية، وفى بناء المعابد، وعلى وصف البلاد المصرية، والروايات التى تحاك حول نهر النيل، وأسباب فيضانه، وآراء المؤرخين والفلاسفة فى فى ذلك. ويحتوى كذلك على تفنيد كل آراء المؤرخين والفلاسفة فى

يناقض ما خبرنا، إلا أن ذلك لا يدعو إلى تكذيبهم ، فالرياح الجنوبية وهى عندنا رياحٌ إعصارية، تسبب فى الحبشة جواً صحواً، والرياح الشمالية فى أوروبا عاتية، فى حين أنها فى تلك البلاد بليلة عليلة.

والآن، فبالرغم من أننا نستطيع أن نسوق أدلة أخرى رداً على كل من جاء بتعليل لظاهرة فيضان النيل، إلا أننا سنكتفى بما أسلفنا، حتى لا نعدو ما عقدنا العزم عليه بادىء ذى بدء من حدود الاختصار.

ولما كنا قد قسمنا هذا الكتاب ـ لطوله ـ إلى قسمين حرصاً منا على تناسب أجزاء هذا السفر، فسننهى هنا هذا القسم من تاريخنا هذا.

وسنورد فى الجزء التالى بقية تاريخ مصر، مبتدئين بالكلام عن ملوك مصر وعن الحياة فى مصر فى أقدم العصور.

الجزء الثانى

٤٢ إن الكتاب الأول من تاريخ ديودور ينقسم ـ لضخامته ـ إلى جزءين. يشتمل الجزء الأول منهما على مقدمة للعمل كله، وعلى معتقدات المصريين فى نشأة الكون، وتكوين العالم فى البدء، وفى الآلهة التى أنشأت فى مصر مدناً ونسبتها إلى نفسها، وعلى آرائهم فى الأناسى الأول، وفى أسلوب الحياة فى العصر القديم، وفى عبادة الآلهة الأزلية، وفى بناء المعابد، وعلى وصف البلاد المصرية، والروايات التى تحاك حول نهر النيل، وأسباب فيضانه، وآراء المؤرخين والفلاسفة فى فى ذلك. ويحتوى كذلك على تفنيد كل آراء المؤرخين والفلاسفة فى

ذلـك. ويحتوى كذلك على تفنيد كل من آراء هؤلاء واحدًا بعد واحد[1]. وسنســرد فى هذا الجزء بقية ما أسـلفنا، مبتدئيــن بملوك مصر الأول، وســنذكر أعمــال كل منهم إلى عهد أمازيس، بعــد أن نصف باختصار أسلوب الحياة فى مصر فى أقدم العصور.

٤٣ أما عن طريقة معيشتهم فى العصر القديم، فيحكى أنهم كانوا يتخذون أكلهم فى ذلك العهد السحيق القدم من الحشائش وسوق نباتات المســتنقعات وجذورها، بعــد الاطمئنان إلى مذاقهــا، ولقد كان النبات المســمى أجروســتيس[2]. أول وأهم ما أضافوه إلى أكلهم، ذلك لامتيازه بشدة الحلاوة، ولأنه غذاء كاف لجسم الإنسان. ولاحظوا كذلك أنه مفيد للماشية، يزيد وزنها بسرعة. وعرفانًا بفضل هذا النبات يحمله المصريون عندمــا يتوجهون للآلهــة ويصلون. وقد كانوا يعتقدون أن الإنســان من هوام المستنقعات والبرك، مســتدلين على ذلك بطراوة بشرته، وببعض الخــواص الطبيعية الأخرى، وبأنه أحوج إلــى الطعام الرطب منه إلى الطعام الجاف. ويقال إن السمك كان ثانى ما أقام به المصريون أودهم، ويزودهم النيل بكميات وفيرة منه، خصوصًا بعد الفيضان حينما ينخفض النهر ويجف[3]. وكذلك يأكلون لحم بعض الأنعام، ويتخذون من جلودها لباسًا، وكانوا يصنعون بيوتهم من الغاب، ولم تزل آثار هذه العادة باقية

(١) يكاد يكون من المحقق أن هذه الفقرة ليست من قلم ديودور. ولكن الكلام الذى يليها لا يتسق مع نهاية الفصل الحادى والأربعين وهو نهاية الجزء الأول.

(٢) هو النجيل، وفى اللاتينية Cynodon Dactylon

(٣) يشير إلى جفاف المستنقعات التى يخلفها فيضان النهر.

بين الرعاة المصريين، فهل إلى الآن لا يصنعون بيوتهم ـ فيما يقال ـ إلا من الغاب، واجدين في ذلك كفايتهم. وبعد أن أمضى المصريون أجيالا عديدة ملتزمين هذا الضرب من الحياة فطنوا أخيرًا إلى ما يصلح للأكل من محصول الأرض، ومن بينها الخبز المصنوع من البشنين. وينسب البعض هذا الاكتشاف إلى إيزيس، بينما ينسبه البعض الآخر إلى أحد الملوك القدماء وهو المدعو مينا، ويروى الكهنة في أساطيرهم أن هرمس ابتكر العلوم والفنون، بينما استنبط الملوك ما كان ضروريًا لإقامة الأود. ولذلك لم يكن يؤول الملك في العصور القديمة لأولاد الملوك، بل للذين يؤدون أعظم الخدمات، وذلك إما لأن القوم كانوا يحثون ملوكهم على أداء الخير العام، وإما لأنهم حقيقة وجدوا في كتبهم المقدسة نصًا بهذا المعنى.

44 ويروى بعضهم أنه في البدء حكم مصر الآلهة والأبطال لمدة تقل قليلا عن ثمانية عشر ألف عام، وأن حورس بن إيزيس كان آخر من حكم مصر من الآلهة، ويقال إن البشر حكموا البلاد بعد ذلك فترة تقل قليلا عن خمسة آلاف عام، وتمتد إلى الأولمبياد الثمانين بعد المائة[1]، حينما زرت مصر في عهد بطليموس المسمى نيوس ديونيسوس[2]، فقد حكم البلاد أربعة ملوك من الأحباش والفرس والمقدونيين[3]، فقد حكم البلاد أربعة ملوك من الأحباش، ولكن بغير

(١) الأولمبياد ال ١٨٠ = ٦٠-٥٦ ق.م

(٢)هو بطليموس الحادي عشر حكم مصر من ٨٠-٥١ ق.م ويعرف ببطليموس الزمار.

(٣)حكم الأحباش مصر من ٧١٥-٦٦٣ ق.م تقريبًا وهو عهد الأسرة الخامسة والعشرين، وحكمها الفرس من٥٢٥-٣٣٢ ق.م وحكمها المقدونيون من ٣٣٢-٣٠ق.م

اطراد في فترات متقطعة، ومجموع سنى حكمهم يقل قليلا عن ست وثلاثين سنة. وبعد أن قهر قمبيز البلاد بقوة السلاح، حكم الفرس مصر خمسًا وثلاثين ومائة سنة، بما في ذلك عهود ثورات المصريين التى أشعلوها لعدم استطاعتهم احتمال قسوة حكم الفرس، ولتجديف هؤلاء بآلهة البلاد. وحكم المقدونيون، وهم آخر من حكم البلاد، ستة وسبعين ومائتى عام. وفيما عدا هذه الفترات تولى الملك ملوك من أهل البلاد، عددهم سبعون وأربعمائة ملك، وخمس ملكات. واحتفظ الكهنة فى كتبهم المقدسة التى يتوارثونها بانتظام من قديم الزمان جيلا بعد جيل بوثائق عن هؤلاء جميعًا، تروى عن مبلغ جرم كل منهم، وعن شاكلته، وعما قام به فى عهده من أعمال. وإذا نحن تحدثنا بالتفصيل عن كل منهم ، كانت مهمتنا طويلة شاقة، وقد تكون بغير طائل كذلك، لأن أكثر هذه الوثائق عديم القيمة، ولذلك سنحاول أن نسرد باختصار أكثر هذه الروايات جدارة بالتسجيل.

٤٥ يقول المصريون إن مينا خلف الآلهة على حكم مصر، وهو الذى علم عامة الناس كيف يعبدون الآلهة، وكيف يقربون الأضاحى. هذا، وقد استحدث المناضد والسرر واستعمال الأغطية الثمينة. وبالجملة، فقد أدخل الترف وحياة البذخ، ويقال إن تنفاخثوسTnephachthus(١) أبوبخوريسBbocchoris، الحكيم الذى تولى ملك مصر بعد ذلك العهد بأجيال عديدة،قام بحملة على بلاد العرب، ولما نفدت المؤن، بسبب

(١)تنفاخثوس هو تِفاخت حكم حوالى ٧٣٠ق.م

محـــل المنطقة ووعورتهـــا، اضطر أن يبقى يومًا واحدًا بلا زاد وأن يقنع بحياة غاية في التقشـــف بين من التقى بهم من عامة الشعب، ولقد سر لذلك غاية السـرور، فأنكر الترف ولعن الملك الذى كان أول من أدخل البذخ، ولقد أثّر هذا التغيير فى المأكل والشـرب والنوم فى نفســه إلى حد أنه نقش لعنتة باللغة الهيروغليفية على معبد الإله زيوس فى طيبة ويبدو أن هذا هو الســبب الرئيســى فى أن شــهرة الملك مينا ومجده لم يبقيـا علــى مدى العصور التاليــة. وخلفت الملك المذكــور ـ فيما يقال ـ ســلالته، وهى فى مجموعها اثنان وخمســون ملكًا، حكموا أكثر من أربعين وألف عام، ولم يحدث فى عهدهم ما يســتحق الذكر. وبعد ذلك تولى بوسيريسBusiris الملك وخلف ثمانية من ذريته كان آخرهم سميا لــه، وهو الذى أنشــأ فيما يقال المدينة التى يســميها المصريون مدينة زيوس الكبرى ويسميها اليونانيون طيبة. وقد جعل محيطها ١٤٠ ستادا وجملهــا تجميلا رائعًا، بإقامة المبانى الضخمة والمعابد الفخمة وغيرها مــن الآثار. وأقام كذلك مســاكن خاصة بعضها مؤلــف من أربعة طوابق والبعض الآخر من خمســة. وبالجملة، فقد جعل من هذه المدينة أجمل المدن لا فى مصر وحدها بل فى العالم أجمع. ويرجع الفضل إلى غناها وقوتها فى أن شهرتها بلغت جميع الأصقاع حتى إن الشاعر ذكرها فى شعره حيث يقول:

« لا ولا كل ثــروة طيبة المصرية، التى أمتــلأت خزائنها أيما امتــلاء، طيبــة ذات المائة باب، التــى ينطلق مــن كل باب منها،

مائتامحــارب بخليهــم ومركباتهم[1]. «ويقــول البعــض إن المدينة لم تكــن ذات مائة باب فعلا، وإنمــا كان لمعابدها مداخل خارجية كثيرة وعظيمة، ومنها نشــأت تسميتها بذات المائة باب، كأنها ذات أبواب كثيرة. والواقع أن عشــرين لألف عجلة حربيــة كانت تنطلق منها إلى الحــرب، فقد كان على طول ضفة النهر من منف إلى طيبة فى الناحية الليبية مائة حظيرة للخيل تتسع كل منها لمائتى حصان، ومازال أساس هذه الحظائر باديًا إلى الآن[2].

٤٦ ولم يؤثر عن هذاالملك وحده الاهتمام بتجميل طيبة، بل لقد وجه الكثيرون ممن خلفوه فى الحكم اهتمامًا خاصًا بتقدم هذه المدينة. فلم تزين مدينة أخرى تحت الشــمس بمثــل ما زينت به من النصب العديــدة الفخمة المصنوعة من الفضة والذهب والعاج أيضًا، والتماثيل الضخمة، ومجموعات المســلات المنحوتة من حجر واحد. ومن بين المعابــد الأربعة التى أقيمت فى هذه المدينة يــروع أقدمها[3] لجماله وضخامته، فمحيطه ١٣ ستادا وارتفاعه ٤٥ ذراعًا وسمك جدرانه ٢٤ قدمًا، وبهاء نصبه الداخلية متناســب مع تلك العظمة. فهذه النصب تروع بباهظ نفقاتهــا، وبما بلغته من منتهى الدقة فى صناعتها. ولقد ظلــت تلك المبانى قائمة إلى عصور متأخرة جدًا، أما الفضة والذهب

---

(١)هوميروس الإلياذه ٩، ٣٨١-٣٨٤

(٢)يرى بعض النقاد أن الجملة من «ويقول البعض... إلى ... إلى الآن» ليس من قلم ديودور والواقع أن قوله «فى الناحية الليبية» لا ضرورة له.

(٣) يعنى بغير شك معبد آمون فى الكرنك.

والمصنوعات العاجيـة الثمينة، والأحجار الكريمة فقد انتهبها الفرس عندمـا أحرق قمبيـز المعابد المصرية. ويقال إن الفـرس نقلوا حينئذ هذه الثروات إلى آسـيا وجلبوا الصناع مـن مصر ليبتنوا لهم قصورهم الشهيرة في برسيوليس وسوسا وميديا. ويقال إن ثروة مصر كانت في هـذا العهـد عظيمة إلى حد أنه بعد أن أتت النيران على ما تركته يد النهب، جُمع ما بقي بدقة بعضه إلى بعض ووجد أنه يقوم بأكثر من ثلثمائـة طالنت من الذهب وبما لايقل عـن ثلثمائة وألفين طالنت من الفضـة. وهناك فيما يقولـون مقابر رائعة للملوك القدماء، ولم تدع لمن خلفهم من الراغبين في محاكاتهم في مضمار العظمة، مجالا للسـبق. ويقـول الكهنة إنهم يجدون فيما بين أيديهم من وثائق أنه كان يوجد سبع وأربعون مقبرة ملكية بقي منها إلى عهد بطليموس بن لاجوس[1] فيما يقولون سـبع عشـرة مقبرة. كان أكثرها قد تهدم عندما زرنا هذه المناطـق في الأولمبياد الثمانين بعد المائـة. وليس الكهنة المصريون وحدهـم هم الذين يقصون ذلك اعتمادًا على وثائقهم، بل إن الكثيرين مـن اليونانيين الذين زاروا طيبة في عهد بطليموس بن لاجوس وكتبوا في التاريخ المصري ومن بينهم هيكاتيوس HECATAEUS[2] يوافقون على ما أوردت.

(١) بطليموس الأول حكم مصر ٣٢٣ – ٢٨٥ ق.م

(٢) هيكاتيوس الأبدري مؤرخ من القرن الثالث ق. م. وكتابه «مصريات» من المصادر التي اعتمد عليها ديودور اعتمادًا كبيرًا.

٤٧ يقول هيكاتيوس إنه على بعد عشرة ستاد من المقابر الأولى، التي يؤثر أنها تضم رفات خليلات زيوس يقوم نصب لملك يدعى أوزيمانديـاس Osymandyas[١] وعند مدخله دهليز من الرخام الملون طوله ٢ بليثرون، وارتفاعه ٤٥ ذراعًا، وفى نهايته يوجد بهو مربع الشكل من الحجر طول كل من أضلاعه ٤ بليثرون، يقوم على غير المألوف على تماثيل حيوانات مقطوعة من كل حجر واحد، طول كل منها ١٦ ذراعًا، منحوتة على الطراز القديم، والسقف كله مقطوع من حجر واحد، وعرضه باعان مغطى باللون الإسمانجونى وموشى بالنجوم. ويلى البهو مدخل آخر وممر يشبه الممر الذى سبق وصفه من جميع الوجوه، ولكنه يمتاز عليه بدقة ما حفر فيه من صور جميع الأشكال. وبجانب المدخل ثلاثة تماثيل، مقطوع كل منها من حجر واحد أسود أسوانى، من بينها تمثال جالس هو أكبر تماثيل مصر جميعها[٢]. فطول قدمه يزيد على سبع أذرع. أما التمثالان الآخران فينتصبان بحذاء الركبتين أحدهما على اليمين والآخر على اليسار، وهما لابنته وأمه، وهما أصغر من الأول حجمًا. وهذا الأثر جدير بالتنويه لا لضخامته فحسب، بل لباهر صناعته ولطبيعة الحجر الممتازة، فبالرغم من ضخامته هذه لا يوجد به شدخ أو عيب واحد. وقد نقش عليه «**أنا أوزيمانديـاس، ملك الملوك، إذا أراد أحد أن يعرف مبلغ عظمتى، وأن يعلم أين أرقد فليبزنى فى واحد من**

(١) الكلام على معبد الرمسيوم فى الأقصر، ويظهر أن لفظ أوزيمانديماس مأخوذ من أوزر مارع، أحد ألقاب رمسيس الثانى الملكية.

(٢) تقدر زنة هذا التمثال بألف طن وهو لرمسيس الثانى.

أعمالي». وهناك أيضًا تمثال آخر لأمه ينتصب متفردًا، مقطوع من حجر واحد طوله عشـــرون ذراعًا. وهي تكلل رأســـها بثلاثـــة تيجان ترمز إلى أنهـــا بنت ملك، وزوج بنت ملـــك، وأم ملك، وفي هذا الممر يوجد بهو آخر أجدر مـــن الأول بالذكر، حفرت فيه صور في جميع الأوضاع تمثل حربه ضد ثوار بكتريا (بلخ) Bactria. فقد استقل ضدهم جيشًا مؤلفًا من أربعمائة ألف راجل، وعشـــرين ألف فارس، وقسم الجيش كله إلى أربع فرق، وضعت كل واحدة منها تحت إمرة أحد أبناء الملك[1].

٤٨ وقـــد صّـــور الملك على الحائط الأول لهذا البهو محاصرًا قلعة يحيـــط بها نهر، وقد انبرى فـــي الصف الأول لمن تصدى له، وبجانبه ســـبع يشـــد أزره، ويشـــيع الرعب من حوله. ويقول بعض مفسري هذه الرسوم، إن السبع أليف تربى على يدي الملك، وقام بنصيبه من مخاطر القتـــال، وجعـــل الأعداء يولون الأدبار خشـــية بطشـــه. ويقول البعض الآخـــر، إنـــه لما كان الملك بالغ البأس وأراد أن يمتدح نفســـه بطريقة مبتذلة، فقد أبرز جبلته على صورة سبع.

أما الحائط الثاني فيرينا أســـرى الحرب[2] الذين اقتنصهم الملك. وقـــد خُصُوا وقطعت أيديهم. ولعل في ذلك إشـــارة إلى وهن عزيمتهم، وقلـــة حيلتهم في مواجهة الأخطار. ونقشـــت على الحائط الثالث صور مختلفة ورســـوم رائعة تمثل الملك يضحي ثيرانًا، وتصور الانتصار الذي

(١) هذا وصف حملة رمسيس الثاني ضد الحيثيين سنة١٢٨٨ ق.م ويقدر عدد المصريين فيها إلى عشرين ألف مقاتل.

(٢) لقد قطعت أيدي قتلى الحرب لا الأسرى

أحرزه فى الحرب. وفى وسـط هذا البهو أقيم مدبح تحت قبة السـماء، من أحسـن أنواع الرخام، دقيق الصنع بالغ الحجم. وفى ناحية الحائط الرابع يوجد تمثالان جالسـان، قطـع كل منهما من حجر واحد، طوله سبع وعشرون ذراعًا، وعلى جوانب هذين التمثالين توجد ثلاث ممرات تفضى من هذا البهو إلى بهو الأعمدة المشـيد على نسـق بهو الموسيقى Odeum، وطـول كل من أضلاعه مائتا قدم وفيه مجموعة من التماثيل الخشبية تمثل خصومًا تعلقت أعينهم بقضائهم، وهؤلاء القضاه مصورون على أحد الجدران[1] وقد بلغوا الثلاثين عددًا، ويتوسطهم قاضى القضاه وقـد عصبت عيناه وتدلـت صورة « الحق» من رقبتـه وتدلت كثير من الكتب. وترمز هذه الصورة إلى أن القاضى يجب ألا يقبل الرشـوة، وأن قاضى القضاة يجب ألا يعير شيئًا سوى الحق التفاته.

٤٩ ويلـى هذا البهو رواق ذو غرف عديدة مختلفة تعد فيها المأكولات اللذيذة من جميع الألوان، وتوجد فى هذا الرواق رسـوم أيضًـا، فقد مثل الملك بألوان زاهية وهو يقدم للآلهه ذهبًا وفضة، هـى الدخل السـنوى من جميع مناجم الفضـة والذهب فى مصر. ويبيـن النقـش المكتوب تحت الرسـم قيمة هـذا الذهب والفضة التى تبلغ اثنين وثلاثين مليون من الفضة. ويلى هذا الرواق المكتبة المقدسة وقد كتب على وجهتها «مصح الروح» وبجوار المكتبة ترى صور جميع آلهة مصر، ويرى الملك كما فى الصورة السـابقة وهو

(١) يضيف بعض النقاد هنا كلمة « بغير أيدى» حتى يستقيم معنى رمز الصورة إلى أن القاضى يجب ألا يقبل الرشوة.

يقدم لكل منهم ما هو جدير به، وكأنه يشهد أوزوريس ومعاونيه فى العالم السفلى على أنه قضى حياته فى البر وصالح الأعمال نحو الناس والآلهة جميعًا. وفى ملاصقة المكتبة بنيت غرفة فى غاية الأناقة، بها عشرون سريرًا، وفيها صور تمثل زيوس وهيرا والملك أيضًا، ويظهر أن الملك كان قد دفن هنا. وحول هذه الحجرة، بنيت عدة غرف صغيرة بها رسوم رائعة لجميع صور الحيوانات المقدسة فى مصر. ويفضى طريق صاعد من بين هذه الغرف إلى المقبرة نفسها، عند نهايته توجد عند الضريح حلقة ذهبية محيطها خمس وستون وثلثمائة ذراعًا وسمكها[1] ذراع واحدة، حفرت عليها – على مسافات متساوية طول كل منها ذراع واحدة ـ أيام السنة، وطلوع الكواكب وغروبها كما تقضى الطبيعة، ومواقيت الفصول مستخرجة منها بحساب علم الهيئة المصرى. ويقال إن الفرس سرقوا هذه الحلقة عندما غزا قمبيز مصر.

هكذا ضريح الملك أوزيمانداياس الذى لم يبز سائر الضرائح فى باهظ نفقاته فحسب بل فى تفنن الصناع فيه أيضًا.

٥٠ ويدعى أهل طيبة أنهم أعرق الناس جميعًا فى القدم، وأن الفلسفة نشأت بينهم أولا، وكذلك علم الهيئة الدقيق وذلك لأن جوّ بلادهم ساعدهم أن يروا بجلاء طلوع النجوم وغروبها. ويقولون كذلك إن الشهور والسنين مقوّمة عندهم بطريقة خاصة، فهم لا يحسبون اليوم بالقمر بل بالشمس. والشهر عندهم ثلاثون يومًا، ويضيفون فى

(١)الأولى أن يقول « عرضها»

حسابهم خمسة أيام وربعًا كل اثنى عشر شهرًا، وبذلك يُتمُّون مدار السنة، فهم لا يزيدون شهورًا إضافية ولا يقطعون أيامًا كما يفعل أكثر اليونانيين، ويظهر أن ملاحظتهم لكسوف الشمس وخسوف القمر دقيقة، فهم يتكهنون بحدوثهما قبل أوانهما، ويتنبأون بكل جزئيات هاتين الظاهرتين بكل دقة.

ولقد أنشأ الثامن من سلالة هذا الملك ويدعى أوخوريوسUchoreus مدينة منف أشهر المدن المصرية. فقد اختار لها أنسب موقع فى البلاد كلها، حيث يتشعب النيل إلى فروع عديدة ويكوّن الدلتا التى سمّيت كذلك لشكلها. وهكذا أصبحت المدينة لحسن موقعها عند مفتاح البلاد مسيطرة على السفن التى تبحر جنوبًا. وشيّد حول المدينة صورًا طوله ١٥٠ ستادا شديد المتانة عظيم الفائدة. وابتناه بالطريقة التالية: لما كان النيل يجرى حول المدينة، ويغمرها عندما يفيض فقد أقام فى الجنوب سدا عظيما يكون عند الفيضان بمثابة حاجز لمياه النهر، وحصنًا ضد الأعداء فى غير وقت الفيضان، ثم احتفر حول جميع الجوانب الأخرى للمدينة بحيرة واسعة عميقة، ولما امتلأت هذه من ماء النهر المتدفق، وغمرت كل المساحة المحيطة بالمدينة فيما عدا الجانب الذى أقام فيه السد، هيأت للمدينة موقعًا شديد المناعة. ولقد كان خيال منشئ منف صادقا فى التكهن بملاءمة هذا الموقع إلى حد أن كل الموك تقريبًا الذين خلفوه هجروا طيبة واتخذوا منف قاعدة ومقرًا لبلاطهم. وإلى هذا يرجع السبب فى أنه من ذلك الحين بدأت شهرة طيبة فى الذبول[1] فى حين

(١) لم يستطع ديودور- وشأنه فى ذلك شأن سائر المؤرخين اليونانيين - أن يكون فكرة صحيحة عن التاريخ المصرى، فطيبة لم تزدهر إلا فى عصر الأسرة الثامنة عشرة فى حين أن=

ظلت شــهرة منف في ازدياد إلى عهد الإسكندر الذى أنشأ على ساحل البحر المدينة التى ســميت بأســمه، وتنافس خلفــاؤه على عرش مصر جميعهم في العمل على زيادة روعتها، فزينها بعضهم بالقصور الفخمة، والبعض الآخر بأحواض السفن والموانئ، والبعض الآخر بمختلف النصب التذكارية والمبانى الرائعة حتى إن أكثر الناس يعتبرونها أولى مدن العالم أو ثانيها. حسبى هذا الآن، فسأصف المدينة بالتفصيل المناسب، وبعد أن هيأ منشئ منف هذا السد وهذه البحيرة، ابتنى قصرًا لايقل شأنًا عن غيره في البلاد الأخرى. ولكنه لا يتناسب مع أريحية أسلافه ولا مع ما أبدوه من شغف بالجمال.

٥١ ويعتقــد المصريــون أن هذه الحياة الدنيــا فى غاية التفاهة، ولكنهــم يعلقون الأهميــة الكبرى علــى الحياة الأخــرى التى تجعلها الفضيلة شيئا مذكورًا. وهم يسمّون بيوت الأحياء منازل، لأنهم يقطنونها مــدة قصيرة، بينما يســمون قبور الموتى المســاكن الدائمة، لأننا نكمل حياتنــا إلى الأبد فى العالم الســفلى. وإلى هذا يرجع الســبب فى قلة اهتمامهم بأثاث بيوتهم فى حين أنهم لا يُجارون فى اهتمامهم بقبورهم. ويذهب البعض إلى أن مدينة منف قد سميت كذلك نسبة إلى ابنة الملك الذى أنشــأها، فقد تواترت الروايات بــأن نهر النيل أغرم بها، فاتخذ هيئــة ثور، وأنجب منها إيجيبتوس الذى أعجب به المصريون لفضائله وســميت البلاد جميعًا باســمه. ولمــا اعتلى العــرش كان رءوفا عادلا، وفاضــلا من جميع الوجوه. فأجمع الناس كلهــم على أنه جدير بعظيم

= منف كانت عاصمة الأسرات الأولى.

التقديـــر، ولـــذا فقد حظى من أجل بِرِّه هذا بذلـــك المجد الذى ذكرت. وبعـــد ثمانيـــة أجيال من عهد إيجيبتوس ارتقى عـــرش مصر مويريس[1] Moeris الـــذى ابتنى الجناح الشـــمالى من معبد منف، وقد بزّ ســـائر الأجنحة جميعها بهاء وروعة. واحتفر على بعد ١٠سخينوس Schoeni من جنوب هذه المدينة بحيرة عظيمة الفائدة ، ولو أنها تطلبت مجهودًا لا يتصوره العقل.

فيقال إن محيطها ٣٦٠٠ ســـتاد وعمقها فى الأكثر خمسون باعًا. فمن ذا الذى يستطيع أن يتصور ضخامة هذا العمل دون أن يكون محقًا فى تســـاؤله كم من عشـــرات الألوف من الرجال اســـتخدموا، وكم من السنين استنفدت لتنفيذ هذا المشروع؟ حقًا لا يستطيع المرء أن يفى هذا المشـــروع الملكى، الذى أضفى على ســـكان مصر جميعًا كل هذا الخير والمنفعة، حقه من الثناء.

٥٢ ولما كان النيل لا يرتفع دائمًا إلى منسوب معين، وكان غنى البلاد متوقفًا على مستوى انتظام ارتفاعه، فقد احتفر الملك هذه البحيرة لتخزيـــن المياه الزائدة حتى لا يغمر النهـــر البلاد بتياره القوى فى غير أوان الحاجـــة فيكوّن البرك والمســـتنقعات، وحتى لا يهلك الزررع لقلة المياه إذا لم يرتفع إلى المســـتوى المطلوب. واحتفر قناة فيما بين النهر والبحيرة طولها ٨٠ ستادا وعرضها ثلاث بلثرونات، وبوساطة هذة القناة كان يطلـــق أحيانًا مياه النهر فى البحيرة. وكان أحيانًا يغلقها، وبذلك

---

(١)هو فيما يظهر أمنمحات الثالث من ملوك الأسرة الثانية عشرة. والحديث حول منخفض الفيوم، وبحيرة قارون.

كان يزود الفلاحين بالمياه في الموسم المناسب بفتح البوغاز وغلقه بطريقة فنية، ولكنها في الوقت نفسه كثيرة التكاليف، لأنه كان يلزم لمن يريد فتح أو غلق هذا البوغاز لا أقل من خمسين طالنت. وقد ظلت البحيرة تفي بحاجة المصريين إلى وقتنا هذا وهي تحمل اسم محتفرها، فهي تسمى إلى الآن بحيرة مويريس. وبعد فين كان الملك يحفر هذه البحيرة ترك في وسطها بقعة ابتنى عليها قبرا وهرمين، أحدهما لنفسه والآخر لزوجه، ارتفاع كل منهما ستاد واحد، وأقام على رأس كل منهما تمثالاً من الحجر جالسا على العرش، معتقدًا أنه بإقامة هذه الآثار سيخلف بعده تذكارًا خالدًا لأعماله المجيدة. ووهب ما يُجبى من الضرائب على الصيد في البحيرة لزوجه لتنفقه على عطورها وأسباب زينتها الأخرى. وقد بلغت قيمة ما يصاد في اليوم الواحد منها طالنتًا من الفضة. إذ في البحيرة ـ فيما يقال ـ اثنان وعشرون نوعًا من السمك، وهي تستخرج بكميات وفيرة إلى حد أن الذين يعملون في حفظها على كثرتهم البالغة، كانوا يؤدون واجبهم بشق الأنفس. تلك إذن هي الرواية التي يحكيها المصريون عن مويريس.

٥٣ ويقال إنه بعد سبعة أجيال تبوأ سيسوسيس Sesoosis[1] العرش وقام بأعمال عظيمة طغى صيتها على ما قام به أسلافه، وقد تضاربت الآراء بصدد هذا الملك بين مؤرخي اليونان، والمصريون أنفسهم لم يستقروا بشأنه على قرار سواء في ذلك الكهنة أو الشعراء الذين مدحوه.

---

(١) يسميه هيرودوت سيسوستريس. وهيرودوت هنا يخلط بينه وبين رمسيس الثاني ولكن الاسم على الأرجح مأخوذ من اسم سنوسرت الثالث أو أوسرتسن من فراعنة الأسرة الثانية عشرة.

وسنحاول من جانبنا أن نثبت أكثر الروايات ترجيحًا وأشدها اتفاقًا مع آثاره التي مازالت قائمة في البلاد. عند ولادة سيسوسيس قام أبوه بعمل ملكي باهر إذ جمع من كل أنحاء مصر الأطفال الذكور الذين ولدوا في نفس اليوم ووكل بهم مرضعات ومربين. وخصهم جميعًا بتربية وتعليم واحد. وقد كان سلوكه هذا قائمًا على فرض أن الذين ينشأون معًا في خلطة وطيدة، متمتعين بقدر واحد من حرية وإعلان الرأي يكونون أشد الناس إخلاصًا وأشجع الأقران في الحرب. وكفل للأولاد ما يلزمهم بسخاء، ودربهم برياضة ومشاق لا تنقطع، ولم يكن يسمح لأحدهم بتناول طعامه قبل أن يكون قد قطع ثمانين ومائة ستاد جريًا، ولذلك، كانوا حين بلغوا مبلغ الرجال، صناديد أقوياء الجسم، جديرين لسمو أنفسهم بالقيادة، قادرين على احتمال المشاق لما دربوا عليه من سامي الأغراض. وبدأ سيسوسيس بأن أوفده أبوه صحبة أترابه على رأس حملة إلى بلاد العرب، وبعد أن تحمل أهوال صيد الحيوانات المفترسة، وعاني مشاق نفاد الماء وندرة الغذاء من حين إلى حين، غزا كل الشعب العربي، الذي لم يسبق أن استعبد من قبل ذلك العهد، ولما أنفذ بعد ذلك إلى الأقاليم الغربية أدخل معظم ليبيا تحت إمرة مصر، مع أنه كان لايزال حديث السن جدًا.

ولما اعتلى العرش بعد موت أبيه وقد ملأته فتوحاته السابقة زهوًا، اعتزم أن يغزو كل المعمورة، وهناك من يقول إن ابنته أثيرتيس Athyrtis دفعته إلى مد سلطانه على العالم أجمع. ويرى البعض أنها أفلحت، لما أمتازت به من شدة الذكاء، في إقناع أبيها بأن الحملة

ستكون سهلة ميسرة، في حين يرى البعض الآخر أنها كانت تتعاطى الكهانة وأنها اطلعت على ما يضمره الغيب عن طريق العرافة، والنوم في المعابد، وما يبدو في السماء من شارات. وكتب البعض أنه عند ميلاد سيسوسيس رأى أبوه هيفيستوس في منامه وأنبأه بأن الطفل المولود سيحكم العالم أجمع.

وهذا إذن هو السبب فيما يقولون في أن أباه جمع كل أترابه، وكفل لهم تنشئة ملكية متخذا الأهبة من قبل لغزو العالم، ولما بلغ سيسوسيس مبلغ الرجال آمن بنبوءة الإله، وحُمل على القيام بهذه الحملة.

٥٤ وتحقيقا لهذا الغرض كان مسعاه الأول كسب عطف المصريين، معتقدًا أنه لكي يصيب نجحًا في خطته يجب أن يكون المشتركون في الحملة مستعدين للقاء الموت في سبيل قادتهم وأن يكون المخلفون في وطنهم بعيدين كل البعد عن الثورة. ولذلك فقد أضفى الخير على رعاياه أجمعين بكل ما استطاع من سُبُل، فاكتسب البعض بالهبات المالية، والبعض الآخر بإقطاعات الأرض، والبعض بإلغاء العقوبات، وامتلك قلوبهم بحسن معاملته ودماثة أخلاقه، فعفا عن كل من اتهم بالخيانة العظمى، وأعفى المسجونين بسبب الدين من التزاماتهم، وقد كانت السجون غاصة بهم. وقسم البلاد كلها إلى ستة وثلاثين إقليمًا يسميها المصريون مقاطعات، ونصب على كل إقليم واليًا ليكون مسئولا عن جباية الضرائب الملكية، وعن إدارة إقليمه، وانتقى من بين رعيته أولئك الذين يمتازون بالقوة البدنية وكون منهم جيشًا كفأ لمشروعه العظيم، والواقع من الأمر أنه جنَّد ٦٠٠,٠٠٠ راجل و٢٤,٠٠٠ فارس. وجهَّز ٢٧,٠٠٠ مركبة

حربيــة ووضع فرق هذا الجيــش تحت قيادة أترابه، وكانــوا قد أكتووا فعلا بنار الحرب، شــديدى الولع منــذ طفولتهم بالبطولة، يكنون الحب الأخــوى لمليكهــم ولبعضهــم البعــض، وكان عددهم يربــو على ١٧٠٠ شــخص، وأقطعهم جميعًا أجود الأرض حتى يستطيعوا ـ وقد رُتب لهم دخل كاف، وانتفت عنهم الحاجة ـ أن يتفرغوا لممارسة فنون الحرب.

٥٥ وبعد أن جهّز جيشــه سار أولا ضد الأحباش الذين يسكنون جنــوب مصر، وهزمهم واضطرهم إلى دفــع جزية من الأبنوس والذهب والعاج، ثم أنفذ حملة مؤلفة من أربعمائة سفينة إلى البحر الأحمر[1]. فهو أول من ابتنى سفنًا حربية من المصريين، واستولى على الجزائر الواقعة في تلك الجهات. أما في القارة نفســها فقد أخضع الشــاطئ إلى الهند. أما هو فقد اشــتق طريقه راجلا على رأس جيشــه وقهر كل آســيا. فهو لم يذهب إلى البلاد التي غزاها فيما بعد الإســكندر المقدوني فحسب، بــل أوغــل أيضا في بعض الأقطار التي لم تطأها أقدام الإســكندر، فقد عبــر نهر الكنج واجتاز بلاد الهند كلها إلى المحيط، وأوغل في القبائل الإســكيثية حتى أتى نهــر التنايس Tanasis[2] الذى يفصل بين آســيا وأوروبــا. ويقال إن جماعة من المصريين تخلفوا في ذلك الحين بالقرب من بحر مايوتيس Maeotis[3] وكونوا قبيلة الكولخيين[4] ويسوقون الدليل

---

(١) يعنى الخليج الفارسى

(٢)هو نهر الدون

(٣)هو بحر آزوف

(٤) حدود بلادهم البحر الأسود في الغرب وجبال القوازق في الشمال، ومقاطعة جورجيا في الشرق وطرابيزون في الجنوب. ويرجح البعض أن الحضارة المصرية أثرت في الكولخيين

علــى أن هذه القبيلة من أصل مصــرى، بأن عادة الختان تمارس عندها كما تمارس فى مصر فهذه العادة تسود بين الجاليات المصرية التى تنزح عن مصر كما هو الحال عند اليهود.

وأدخـــل تحت نيره كذلــك الإقليم الباقى من آســيا وأكثر جزائر الأرخبيــل ثم عبر البحر إلى أوروبا وأوغل فــى تراقيا كلها وهناك كاد أن يفقد جيشـــه لنفاد المؤن ووعورة البــلاد. ولذلك فقد جعل من تراقيا حـــدود حملته وأقام أعمدة فى كثير من البقــاع التى أخضعها، وكانت هــذه الأعمدة تحمــل النقش الآتى مكتوبًا بالحروف المصرية يســمونها مقدســة «سيسوســيس ملك الملوك، ورب الأرباب أخضــع هذه البلاد بقوة ســلاحه» وصور على الأعمدة صورة سوءة رجل بين القبائل المحبة للحرب، وســوءة أنثى بين القبائل المترهــة الرعديدة، فقد رأى أن هذا العضو المميز للجنس سيظهر بجلاء الأجيال المقبلة طبيعة نفس كل هذه الشعوب، وأقام لنفسه فى بعض المناطق تمثالاً من الحجر يصوره متدرعًا يحمل قوسًــا وســهامًا ورمحًا طوله أربع أذرع وأربع راحات، وهو طول سيسوسيس نفسه فى الحقيقة. وعامل الشعوب المقهورة بالحسنى. وبعد أن ختم حملته فى تســع سنوات أمر الشعوب المقهورة أن تحمل لمصر الهدايا كل عام كل بحســب قدرته. أما هو فبعد أن جمع أعدادًا غفيرة جدًا من الأســرى وكمية بالغة من أسلاب الحرب الأخرى، قفل راجعًا إلــى وطنــه وقد أنجز أعمالاً أعظم مما قام به أى ملك قبله. هذا إلى أنه زيــن جميع المعابد فى مصر بالنصب والأســلاب الرائعة، وكافأ الجند الذين قاموا بأعمال مجيدة بالعطايا كل بحسب جدارته. وبالجملة، فلم

تكن نتيجة هذه الحملة أن جمع الجند الذين ساهموا بشجاعتهم فى مشروع الملك ثروة طائلة، ورجعوا إلى أوطانهم منتصرين، فحسب، بل إن الخيرات من جميع الأنواع تدفقت على مصر بأسرها.

56 وبعد، فقد سرَّح جيشه وأعفاه من مشاق الحرب، وسمح للذين ساهموا فى تلك الأعمال المجيدة أن يعيشوا حياة هنيئة متمتعين بالثروة التى اكتسبوها. أما هو وقد كان تواقا للذكر الخالد، فقد أقام آثارًا عظيمة تروعك فكرتها كما تروعك المبالغ التى أنفقت عليها، فحقق بذلك المجد الخالد لنفسه، ودوام الرفاهية والأمن للمصريين. ولما كان همه الأول تمجيد الآلهة فقد ابتنى فى كل مدينة فى مصر معبدًا للإله الذى كان سكان المدينة يقدسونه قبل سواه. ولم يستخدم المصريين فى هذه الأعمال، بل أنجزها أسرى الحرب وحدهم، ولذلك أثبت على كل معبد نقشًا يقول «إنه لم ينصب فى هذا العمل أحد من المصريين» وكان الأسرى البابليون غير قادرين على احتمال مشاق هذه الأعمال، فثاروا ـ فيما يقال ـ على الملك، واستولوا على موقع حصين على ضفة النهر، وشنوا الحرب على المصريين، وعاثوا فسادًا فى الإقليم المجاور. وأخيرًا، استقروا فى تلك المنطقة بعد أن صدر عنهم عفو عام وأطلقوا عليها اسم موطنهم الأصلى بابلون. ويقال إنه لأسباب مماثلة أطلق اسم طرويا على المدينة التى ما زالت إلى يومنا هذا قائمة على ضفة النيل، ذلك أنه عندما ارتحل مينيلاوس[1] Menelaus

(١) المأثور فى القصص أن مينيلاوس قضى ثمانى سنوات هائمًا حول شواطئ البحر المتوسط قبل أن يصل هو وزوجته هيلينا إلى أسبرطة بعد حرب طروادة.

عـن طروادة، وعبـر البحر إلى مصر، وبصحبته جمع غفير من أسـرى الحرب ثار عليه هؤلاء واستولوا على بعض المواقع وظلوا يشنون الحرب إلى أن تعهد لهم بألامن والسـلام، ثم أنشـأوا مدينة أطلقوا عليها اسـم موطنهم الأصلى عينه. ولسـت بغافل عن أن كتيزياس الأكنيدى[1] أورد روايـة أخرى بأن هاتين المدينتين، إذ قـال إن الذين ارتحلوا إلى مصر مع سميراميسSemiramis[2] أنشـأوهما وأطلقوا عليهما أسماء أوطانهم الأولى. ولكن حيث إنه من العسير أن نسوق الحقيقة بشأن هذه المسائل بدقة، فقد كان من الضرورى أن نورد مختلف آراء المؤرخين السـابقين حتى يتمكن القراء من إصابة محجة الصواب.

٥٧ ومهما يكن من شـىء فقد أقام سيسوسيس قلاعًا عظيمة نقل إليهـا جميع المدن التى لم يكن موقعهـا الطبيعى مرتفعًا، حتى يهيئ للنـاس والأنعام ملجـأ أمينا فى وقـت الفيضان. واحتفر فى كل الأرض فيمـا بين منف والبحر قنوات عديـدة متفرعة على النهر حتى يتم نقل المحصول بسرعة ويسـر، وحتى يتسنى للأقاليم كلها ـ باتصال الناس بعضهم ببعض ـ أن تنعم بحياة هادئة ويفيض من أسباب النعمة. وأهم ما فى هذا الأمر أنه حسـن البلد وجعلها بمنأى عن غزوات الأعداء فقد كان أغلب القطر المصرى قبل هذا العهد مطية سهلة للخيول والعجلات، ولكـن منذ ذلك الحين أصبح من الصعب على العدو أن يغزو لكثرة عدد

(١) عاش فى أواخر القرن الخامس ق.م. وكتب تاريخ آشور وفارس

(٢) سميراميس وزوجها نينوس هما ـ كما جاء فى الأساطيرـ اللذان أنشآ إمبراطورية نينوس أو نينوى.

القنــوات المتفرعــة على النهر. وحصن الجبهة المصرية الشــرقية على طول الصحراء من الفرما إلى هليوبوليس، وهى مسافة١٥٠٠ ستاد، ضد الغزوات المندفعة إليها من ســوريا وبلاد العرب. وابتنى أيضًا ســفينة من خشــب الأرز طولها ثمانون ومائتــا ذراع وجهها الخارجى مذهب، والداخلى مطلى بالفضة، وقد أرصدت هذه السفينة ومسلتان من الحجر الصلد نقش عليها ما ينبئ عن عظمة قوته. ووفرة دخله وعدد الشــعوب التــى أخضعهــا للإله المقدس فى طيبة. وأقام فــى منف فى معبد الإله هيفايســتوس تمثالين كل منهما من حجر واحد لنفسه ولزوجه طول كل منهما ثلاثون ذراعًا[1]، وتماثيل أخرى لأبنائه طول كل منهما عشــرون ذراعًا.وقد كانت إقامتها كلها للسبب الآتى:

بعــد أن قفل سيسيوســيس راجعًا إلى مصر مــن حملته العظيمة، وكان يقضى وقته بالقرب من الفرما، حدث أن دبر له أخوه مؤامرة بينما كان يحتفى به وبزوجه وأولاده. ذلك أنه بعد أن ســكنوا إلى مخادعهم وقد لعبت الخمر برءوســهم وضع أخوه كميات كبيرة من الغاب الجاف – وكان قــد جهزهــا من قبل ـ حول خيمة الملك، وأشــعل فيها النار، فلما اندلعت النيران فجأه سعى الموكلون بخدمة الملك كسالى لنجدته، فقد كانوا ســكارى. ولكن سيسوســيس رفع كلتا يديه إلى السماء وصلى للآلهة لتنقذ زوجه وأولاده، وانطلق بين ألســنة النيران سالمًا. فلما نجا بهــذه الطريقة العجيبة قرب النذر تمجيدًا للآلهة جميعًا كما ذكرنا آنفًا وبخاصة هيفايستوس لأنه كان سببًا فى نجاته.

---

(١) يوجد بالقرب من منف تمثالان عظيمان لرمسيس الثانى، طول أكبرهما اثنان وأربعون قدمًا أو يوازى الثلاثين ذراعًا التى يذكرها ديودور وهيرودوت٢، ١١٠

٥٨ وعلى كثرة ما ينسب إلى سيسوسيس من عظيم الأعمال، فإن أجلها قدرًا فيما يبدو لنا تصرفه مع أولى الأمر فى الشعوب المقهورة فى روحاته وغدواته.فإن الملوك الذين أتيح لهم أن يبقوا على عروشـــهم فى الـــدول المغلوبة والفئة التى بلغت فيها أرفع المناصب كانوا يمثلون إلى مصر فى أوقات معينة حاملين إليه الهدايا. وكان سيسيوســيس يرحب بهم ويفيض عليهم كل صنوف التكريم، ويودعهم باحترام زائد. ولكنه حينمــا كان يزمــع زيارةٍ معبد أو مدينة، كان يطلــق الخيل من مركبته ويضــع تحت النير بدلا منها أربعة ملــوك بالتناوب، معتقدًا أنه يظهر للعالم بذلك أنه لم يعد من ينازعه قصب الســبق فى البطولة، وقد قهر أقوى الملوك وأبعدهم شــهرة فى الشــجاعة. ويبــدو أن هذا الملك فاق جميع من ســبقوه من الحكماء فى المجد الحربى، وعظمة وكثرة ما أقام فى مصر للآلهة من معابد، وما ابتنى من منشــآت. وبعد أن حكم ثلاثًا وثلاثين ســنة ترك الحياة مختارًا بعد أن زايلته نعمة البصر. ولم يكسبه هذا العمل إعجاب الكهنة فحســب. بل أكسبه إعجاب المصريين كلهم بوجــه عام. فقد رأوا أنه اختتم حياته ختامًا يليق بما تجلى فى أعماله من سمو النفس، ولقد زادت شهرة سيسوسيس على مر السنين حتى إنه عندما وقعت مصر فى قبضة فارس، وأراد دارا أبو أجزركسيس أن يقيم لنفســه تمثالاً فى منف أمام تمثال سيسوســيس، اعترض الكاهن الأعظم على هذا الاقتراح عندما عرضت المسألة على مجمع الكهنة، مشيرًا إلى أن دارا لم يقم بعد بما يفوق أعمال سيسوسيس، ولم يغضب الملك لذلك

مطلقًا. بل سر لهذه الصراحة في القول، ووعد بأنه سيعمل على ألا يكون لاحقًا لسيسوسيس في أمر ما إذا قسم له أن يبلغ مابلغه من العمر.

وطلب إلى الكاهن الأعظم أن يزن أعمال كل منهما في نفس العمر مبينًا أن ذلك أعدل محك لعظمتهما، ولنقنع الآن بما أسلفنا من قول عن سيسوسيس

٥٩ وورث ابنه ملك أبيه واتخذ اسمه، ولكنه لم يقم بعمل حربي أو غير حربي يستحق الذكر، وانتابته محنة عظيمة إذ فقد بصره، إما لمشابهة في تركيب الجسم بينه وبين أبيه أو كما يقول البعض لكفره بالنهر، فقد ألقى سهمه في قلب التيار المائي حينما طوحت به الأمواج العاصفة. وقد اضطرته محنة العمى هذه إلى أن يلجأ إلى المعونة الإلهية محاولا لمدة طويلة أن يسترضي الآلهة بالأضاحي والقرابين المتعددة، ولكنه لم يلق رضا. وفي السنة العاشرة، أمره الوحي أن يمجد إله هليوبوليس وأن يغسل وجهه ببول امرأة لم تتصل قط برجل غير زوجها. فاستعان أول الأمر بزوجه، ثم جرب نساء أخريات، لم يجد منهن واحدة طاهرة إلا زوج أحد البستانيين، فتزوج منها بعد أن استرد بصره، وحرق الأخريات أحياء في إحدى القرى، وقد أطلق عليه المصريون – إشارة إلى هذه الحادثة – اسم «الأرض المقدسة»[١]. وأقام الملك – انصياعًا لأمر الوحي وعرفانًا بصنيع إله هليوبوليس – مسلتين من حجر واحد سمك كل منهما ثماني أذرع وطولها مائة ذراع[٢].

(١) القصة واردة في هيرودوت ٢، ١١١ باختلاف يسير.

(٢) لا تزال إحداهما قائمة إلى الآن، وهي من حجر الجرانيت وارتفاعها ٦٦ قدمًا

٦٥ وبعد ذلك الملك لم يقم الكثيرون ممن خلفوه على العرش بعمل واحد يستحق الذكر. وبعد أجيال عديدة تولى أمازيسAmasis الملك، فساس الرعية بالعنف، وعاقب الكثيرين ظلمًا، وحرم عددًا غفيرًا من ممتلكاتهم، وعامل رعاياه كلهم بازدراء وعتو. ولقد احتمل الشعب المتألم زمانًا فلم يكن في مكنته أن يحمي نفسه ضد أصحاب السلطة الكبرى. ولكن لما غزا أكتيزانيسActisanes[1] ملك الحبشة مصر وجد غيظ المصريين منفرجًا، فثارت غالبيتهم ضد أمازيس، فهزم بسهولة ووقعت مصر تحت حكم الأحباش، ولم يطر هذا النجاح بلب أكتيزنيس، فعامل الشعب المقهور بالحسنى، وقام بعمل جليل بشأن اللصوص، فلم يحكم بالموت على المذنبين ولا هو أطلق سراحهم دون عقاب البتة، بل جمع من كل أقاليم مصر المتهمين باقتراف الجرائم، وبعد أن قام بتحريات دقيقة جمع كل من أدينوا وجدع أنوفهم وأبعدهم إلى حدود الصحراء، وأنشأ لهم مدينة سميت رينوكولورا أى « مجدوعة الأنف» نسبة إلى سكانها. وهى تقع على الحدود بين مصر وسوريا غير بعيد من ساحل البحر، محرومة من كل أسباب الحياة الإنسانية تقريبا، وهى محاطة بمنطقة مغطاة بطبقة سميكة من الملح، ولا يوجد داخل حدود المدينة إلا قدر قليل من الماء فى الآبار غير نقي ومر المذاق. ولقد أبعد المجرمين إلى هذه المنطقة حتى لا يمارسوا من ناحية الأعمال التى درجوا على ممارستها طوال حياتهم، فينتهكون حرمة الأبرياء، وحتى يظلوا من

(١) يرى البعض أن أكتيزانيس هو الملك سبا أو سباكا٧١٢-٧٠٠ ق.م وهو أول ملوك الأسرة الخامسة والعشرين.

ناحيــة أخرى متميزين فى صلاتهم بغيرهم من الناس. وبالرغم من أنهم كانــوا منبوذين فى صحراء عديمة المــوارد تقريبًا فقد اهتدوا إلى طريقة لكسب قوتهم تناسب ماهم فيه من فقر. فقد اضطرتهم الطبيعة إلى طرق كل السبل الممكنة لمواجهة الإملاق. فقطعوا الغاب فى المنطقة المجاورة واستطاعوا بشقه أن يصنعوا منه شباكا طويلة جدًا، نصبوها على الشاطئ على مســافة أميال عديدة لاصطياد السمان الذى يطير فى أسراب كبيرة من ناحية البحر. فاصطادوه بكميات كبيرة أقامت أودهم.

٦١ وبمــوت هــذا الملك اســتعاد المصريون الســلطة، ونصبوا منديس Mendeus[1] ملكا عليهم، وهو مصرى الأصل، ويســميه البعض ماروس Marrus. ولم يقم هــذا الملك بعمل حربى على الإطلاق، ولكنه شــيد البناء الذى يعرف باســم اللابرنث «قصر التيه» قبرًا له، وهو لا يدعــو إلى العجب لضخامته بل لدقة صناعته التى لا تحاكى. فإن من يلجه لا يســتطيع أن يجد طريقه إلى الخارج بســهولة إلا إذا كان له دليل محنك جدًا. ويحكــى أن ديدالوس[2] Daedalus أبحر إلى مصر، وأعجــب بما تجلى فى هذا البناء من المهــارة الفنية، فابتنى لمينوس Minos ملك أقريطش تيهًا يشــبه التيه المصــرى، وأودع فيه الحيوان المسمى مينوطور Minotaurus ولكن التيه الأقريطشى لم يبق له وجود مطلقًــا، ويعزى إلى هذا أن أحد الملوك قد قوّضه من أساســه، أو إلى

(١) يسميه إسترابون مرة إيمانديس ومرة إيسمانديس.

(٢) شخصية أسطورية تمثل عند اليونانيين بدء تطور فنى النحت والعمارة. والاسم فى اليونانية يعنى "الصانع الحاذق"

أن الزمـــان عدا عليه. أما التيه المصرى فما زال إلى يومنا هذا محتفظًا بكامل رونقه.

٦٧ وبعد موت هذا الملك ظلت البلاد بلاحاكم خمســة أجيال، تولى الملك بعده رجل نكرة سماه المصريون كيتيسCetes[١] ويعرف عند اليونان باسم بروتيوسProteus كان معاصرًا للحروب الطروادية. وكانت قد تواترت الأنباء بأنه كان متفقهًا فى علم الأرواح، فقد كان فى قدرته أن ينسخ نفسه حيوانًا مرة وأخرى شجرة أو نارًا أو أى شىء آخر. وتتفق مع هذه الرواية رواية الكهنة القائلة بأن الملك اكتســب معرفته بهذه الأمور من اتصاله الوثيق الدائم بعلماء الهيئة. هذا فى حين أن قصة نسخ شكله هذه نشــأت عند اليونان من تقليد متوارث لدى المصريين، فقد كان من عادة ملوك مصر أن يضعوا على رءوسهم رأس أسد أو ثورًا أو ثعبانًا بمثابة رمز لســلطانهم. وقد يضعون أحيانًا على رءوسهم شجرة أو نارًا وأحيانًا يضعون شــيئًا من البخور الذكى. وهم لا يتخذونها للزينة فحســب، بل ليلقوا كذلك الرعب والرهبة فى قلوب الناس. وبعد موت بروتيوس خلفه ابنــه ريمفيسRhemphis[٢] على العرش، فقد قضــى حياته كلها موليًا همــه لتنميــة دخله وجمع المال من جميع مختلــف المصادر ولم ينفق ـ لخسة نفسه وجشع طبعه ـ شيئًا على قرابين الآلهه أو فى البر بالإنسان. ولما كان مديرًا حاذقا لشــئون المال أكثر منه ملكا، فبدلا من أن يخلف

(١) لا يعرف عن كيتيس هذا شىء. أما بروتيوس فيظهر أنه تحريف لقب مصرى، وهو فى الأساطير اليونانية ملك أرجوس.

(٢) ريمفيس هو رمسيس الثالث ويسميه هيرودوت رامسينيتوس ٣، ١٢١.

ذكـرى بطولة. خلف مبالـغ من المال أكبر مما خلفه أى ملك قبله. فقد أثر عنه أنه جمع حوالى ٤٠٠,٠٠٠ طالنت من الفضة والذهب.

٦٣ وبعد موته خلفه على العرش مدى سبعة أجيال ملوك خاملون صرفـوا همهم إلـى المتعة والترف ولذلك لم تحفظ لنا سـجلات الكهنة إشارة واحدة إلى أثر من آثارهم، أو عمل ما من أعمالهم يستحق الذكر، اللهم إلا فيما يتعلق بالملك نيلوسNileus الذى سمى النهر باسمه، وكان النهر يدعى من قبـل إيجيبتوسAegyptus. فقد احتفر هذا عددًا كبيرًا من القنوات في مواضع صالحة، واثبت بمجهودات مختلفة حرصه على أن يزيد من فائدة النهر. ومن هنا أطلق على النهر اسمه الحالى.

وثامـن هـؤلاء الملوك خمّيـسChemmis[1] من منـف وقد حكم خمسـين عامًا وابتنى أكبر الأهرام الثلاثة التـى تعد من عجائب الدنيا السـبع. وهى تقـع فى الجانب المتاخـم لليبيا على بعد ١٢٠ سـتادا من منف و٤٥ سـتادا من النهر، وهى تملأ نفس الرائى عجبًا ودهشـة لضخامتهـا ودقة صناعتهـا. وأكبرها مربع القاعدة طـول كل ضلع من أضلاعها سـبعة بلثرونـات وارتفاعه أكثر من سـتة بلثرونات، وتندرج مساحته في الصغر حتى تصل إلى القمة التى طول كل ضلع فيها ست أذرع. والبناء كله مشـيد من حجر صلد يصعـب صقله ولكنه يبقى إلى الأبد. فما زالت الأحجار ثابتة فى مواضعها الأصلية حافظة لكيان البناء

---

(١)هو خوفو ويسـمية هيرودوت كيوبس ٣، ١٢٤، ولقـد وقع ديودور فى نفس الخطأ الذى وقع فيه هيرودوت فجعل بناء الأهرام الذى تم فى الأسرة الرابعة بعد رمسيس الثالث وهو من فراعنة الأسرة العشرين.

كله من التهدم، مع أنه قد انقضى على بنائه ما لايقل عن ألف عام كما يقــول البعض، أو أكثر مــن أربعمائة وثلاثة الآف عام كما يقول البعض الآخر. ويقال إن الأحجار نقلت من مســافة كبيــرة من بلاد العرب[١]، وأن عمليــة البنــاء قد أجريت بوســاطة تلال من الرمــل لأن الروافع لم تكن قد اكتشــفت بعد في تلك الأيام. وأغــرب ما في الأمر أنه بالرغم مــن أن عملية البناء قد أجريت في منطقة رملية كلها، فليس هناك من أثــر للتلال، أو لعملية صقــل الأحجار حتى ليبــدو كأن البناء لم تقمه تدريجيًا يد الإنســان بل كأن أحد الآلهة أقامه دفعة واحدة وسط الرمال المحيطة به. ويحاول بعض المصريين أن يصوروا هذا الأمر كأنه إحدى العجائــب، فيقولون إن التلال صنعت من الملــح والنطرون ولما أطلقت مياه النهر عليها أذابتها ومحتها نهائيًا دون أن يكون للإنسان ضلع في الأمر. والواقع أن هذه الرواية عارية عن الصحة تمامًا، فإن العدد العظيم مــن العمال الذين أقاموا التلال، أرجعوها بأنفســهم إلى ما كانت عليه من قبل فإن ســتين وثلثمائة ألف رجل كانوا يعملون فيما يقال في هذا البناء، وقد أنجزوه بشق الأنفس في عشرين عامًا.

٦٤ ولمــا مــات هــذا الملك خلفــه على العرش أخــوه كفرن[٢] kephren وحكم ستًا وخمسين سنة. ويذهب البعض إلى أن الذى تولى الملــك بعد خوفو ليس أخاه بل ابنــه خابرياس Chabryas، والإجماع

(١) بلاد العرب تعني كل المنطقة الواقعة بين النيل والبحر الأحمر، ولكن الأرجح أن أحجار الأهرام اقتطعت من المنطقة المحيطة بها.

(٢) هو خفرع كما ورد في النقوش. ويسميه هيرودوت ٢، ١٢٧ كفرن كذلك.

على أن خليفة خوفو انتهج سياسته وابتنى الهرم الثانى وهو يشبه الأول من حيث المهارة الفنية ولكنه يقل عنه حجما إذ إن طول كل ضلع من أضلاع قاعدته ستاد واحد، ويدور أحد نقوش الهرم الأكبر حول المبالغ التى أنفقت فى بنائه وهو يظهرنا على أن أكثر من ستمائة وألف طالنت أنفقــت على الخضراوات والطهــو اللازم للعمال. أما الهرم الثانى فخال مــن النقوش وبــه درج محفور فى أحد جوانبــه، وبالرغم من أن هذين الملكين قد ابتنيا الهرمين ليدفنا فيهما، فلم يحدث أن دفن أحدهما فى هرمه، ذلك بأن المشــاق التى تحملها القوم فى بنائهما، وقسوة الملكين وعنفهما، ألبت الشــعب ضدهما فآلى أن يمزق جثتيهما إربًا، وأن يلقى فــى غيطه خارج القبور، ولذلــك أوصى كل منهما أهله بدفنه عند موته سرًا فى مكان مجهول.

تولى الملك بعد ذلك ميكيرينوس Mycerinus الذى يسميه البعض منقرع Mwncherinus وهو ابن بانى الهرم الأكبر، ولقد شــرع فى بناء هــرم ثالث ولكنه مات قبل أن يتمه، وجعل طول كل ضلع من أضلاعه قاعدته ثلاثمائة قدم وابتنى خمس عشرة طبقة من الواجهة الخارجية من الحجر الداكن[1] اللون الشــبيه بأحجار طيبة. أما باقى الهرم فقد ابتناه مــن أحجار كالتى اســتعملت فى بناء الهرمين الآخريــن. وهو يفوقهما جــدًا فى دقة صناعته وقيمة أحجاره، ولو أنه يقل حجمًا عنهما كثيرًا. ويحدثنا النقش المكتوب على الجانب الشمالى منه أن بانيه منقرع. ولم يرض عن قســوة أســلافه واجتهد فى أن يحيا حياة فاضلة يصرفها فى

(١) الطبقات السفلى من الهرم الثالث من حجر الجرانيت الأحمر

خير شـعبه، ودأب على القيام بالأعمال التى اعتقد أنها تكسـبه عطفٍ شعبه. ويقولون إنه أنفق مبالغ طائلة من المال على تنظيم القضاءٍ، باذلا هبات كبيـرة للرجال الفضلاء الذين رأى أنهم لم يلقوا جزاء عادلا على يد القضاء.

وهنـاك ثلاث أهـرام أخر طول كل ضلع مـن أضلاعها مائة قدم. وهى تشـبه الثلاث السـابقة فى شـكلها وليس فى حجمها. ويقال إن الملوك الثلاثة السـابقين ابتنوها لأزواجهـم. ولقد اتفقت الآراء على أن الأهـرام لم تحظ فى مصـر بذلك المركز الممتازٍ لضخامـة بنائها وباهظ تكاليفها فحسـب، بل لدقة صناعة بناتها أيضًا. ومهندسـو المشـروع أولـى بالإعجاب– فيما يقال – مـن الملوك الذين دبروا المال لإنجازه، لأن المهندسـين استنفدوا فى إنجاز المشـروع أرواحهم وهممهم، بينما اسـتغل الملوك الأموال التى ورثوها ومجهودات الآخرين. ولقد تضاربت الآراء بشأن الأهرام بين سكان البلاد كما تضاربت بين المؤرخين. فيعزو البعـض بناءها إلىٍ الملوك الذين ذكرتهـم بينما يعزوه غيرهم إلى ملوك آخرين. فيقولون مثلا إن الهرم الأكبر ابتناه أرمايوس Armaeus والثانى أموزيـس Amosis والثالث إينـاروس Inaros ويذهب البعض إلى أن الهرم الأخير كان قبـرًا للمحظية رودوبيس[1] Rhobopis. فقد تواترت الرواية أن بعض حكام الأقاليم كانوا يهوونها وأنهم اشـتركوا فى إقامة هذا البناء مدفوعين بغرامهم بها.

(١) رودوبيس معناها حمراء الوجنتين وهى كنية غانية من غوانى نوقراطيس خلبت لب خاراكسوس أخى الشاعرة سافو، فنددت بها.

٦٥ ارتقى العرش بعد هؤلاء الملك بوخوريس[١] Bocchoris وكان زرى الهيئة جداً، ولكنه فاق جميع من سبقه من الملوك فى حكمته. وبعد زمن طويل ارتقى عرش مصر سباكون Sabacon وهو حبشى الأصل ولو أنه بز أسلافه كثيرًا فى التقوى والفضل. وقد نستشهد على طيبة قلبه بأنه ألغى أشد عقوبات القانون ونعنى بها عقوبة الموت. فبدلا من أن ينفذ حكم الموت فى المدانين، اضطرهم إلى أن يقوموا بأعمال عامة فى المدن مكبلين. وكذلك أقام جسورًا عديدة واحتفر قنوات كثيرة مفيدة، فقد رأى أنٍ يخفف منٍ قسوة العقوبة على من حكم عليهم بها. وأن يضمن للمدن أعمالا مفيدة بدلا من العقوبة عديمة الفائدة. ويمكن أن نستدل على مبلغ تقواه من الرؤى التى عرضت له، ومن قصة تنازله عن العرش، فقد رأى فى منامه كأن إله طيبة ينبأه بأنه لن يتاح له أن يستوى على عرش مصر فى هناءة أو لأمد طويل إلا إذا شطر أجسام جميع الكهنة شطرين، ومر مع حاشيته فى وسطها. ولما تكرر هذا الحلم استدعى الكهنة من جميع الأقاليم وقال لهم إن بقاءه فى البلاد قد أحفظ الإله وإلا ما أمره فى الحلم بشىء كهذا، ثم قال إنه يفضل أن ينزح عن البلاد دون أن يلوث نفسه ويؤثر أن يلقى بحياته فى يد القدر على أن يثير حفيظة ربه، ويلوث نفسه بهذه الجريمة الشنعاء لقاء استمراره فى حكم مصر. وأخيرًا سلم مقاليد الحكم لأهل البلاد وقفل راجعًا إلى الحبشة[٢].

(١) هو بوكنرانف حكم مصر من ٧٣٦ - ٧١٢ تقريبًا، وهو ثانى ملوك الأسرة الرابعة والعشرين.

(٢) قصة تنازل آخر ملوك الأحباش عن حكم مصر، واردة فى النقوش القديمة ولكن الواقع أن تنازله كان تراجعًا أمام زحف الأشوريين.

٦٦ وظل العرش شاغرًا طيلة السنتين التاليتين، ولما مال العامة إلى الفتن والحروب الأهلية تحالف أقوى اثنى عشر زعيمًا، واجتمعوا فى منفٍ وعقدوا معاهدة ليرعوا الميثاق والوئام فيما بينهم ونصبوا أنفسهم ملوكا. وحكموا البلاد وفقا لعهودهم ومواثيقهم، وحافظوا على صلات الود فيما بينهم مدة خمسة عشر عامًا. ثم شرعوا فى بناء قبر مشترك لهم. فقد رأوا أنه كما رعوا الود فيما بينهم على قيد الحياة واكتسبوا مجدًا متكافئا يجب أن ترقد أجسادهم بعد الموت كذلك فى صعيد واحد، وأن يقوم الضريح بعد إتمامه شاهدًا جامعًا على مجد الذين يرقدون فيه. ولقد دفعتهم شدة حرصهم على بلوغ هذه الغاية إلى بذل أقصى الجهد ليفوق هذا البناء فى ضخامته كل ما سبقه من الآثار، واختاروا له موقعًا فى الصحراء الليبية[1] عند مدخل بحيرة موريس وشيدوا قبرهم بأحسن أنواع الحجارة. وقد اختطوه مربع الشكل طول كل ضلع من أضلاعه ستاد واحدٍ. وزينوه بالزخارف وسائر الأعمال الفنية حتى لم يدعوا لخلفهم[2] مجالا لمنافستهم، نجد فيه بعد أن نعبر السور الخارجى بهوًا تحيط به العمدة، أربعون منها فى كل جانب، وسقفه منحوت من حجر واحد، مزخرف بتجاويف هندسية، ورسومات مختلفة، وبالبهو كذلك تذكار لمسقط رأس ملك من الملوك. وإن ما فيه من معابد وطقوس، كلها مصورة ببراعة فى رسوم رائعة. ولقد كان تصميم

(١) أى فى الجانب الغربى من النيل.

(٢) هذا هو التيه المذكور فى الفصل ٦١ وقد ابتناه أمنمحعت الثالث من الأسرة الثانية عشرة.

البنـاء الـذى وصفه هؤلاء الملـوك باهظ النفقات وكبيـر الحجم – فيما يقـال – إلى حـد أنه لو لم يتركوا العرش قبل تمامه لقطعوا على غيرهم طريق منافسـتهم فى تشـييد الآثار، ولكن حدث أنه بعد أن حكم هؤلاء الملوك مصر مدى خمسة عشر عامًا انتقلت السلطة إلى يد رجل واحد، للأسـباب التالية: زود أبسماتيك Psammetichus [1] السايسى – وهو أحد الملوك الاثنى عشر، وصاحب السلطان فى المناطق المتاخمة للبحر – جميـع التجار بالبضائـع، وخصوصًا الفينيقييـن واليونانيين منهم. فتخلص بهذه الطريقة من منتوجات بلاده بربح، واسـتورد عوضا عنها منتوجـات البلاد الأخرى، فلم يربح ثروة طائلة فحسـب، بل كسـب كذلك صداقة الشـعوب وحكامها. فحسده الملوك الآخرون – فيما يقال – من أجل ذلك، وشنوا عليه الحرب، ولكن بعض المؤرخين المتقدمين يروون قصة فحواها أن الوحى أنبأ هؤلاء القادة بأن أول من يسكب منهم قربان الخمر للإله فى منف فى إناء برونزى سـيصبح سـيد مصر كلها. ولمـا ذهب أحد الكهنـة ليحضر لهم من المعبد اثنى عشـر إناء ذهبيًا نزع أبسـماتيك خوذته وسكب منها القربان. وبالرغم من أن سلوكه هذا قد أثار شـكوك زملائه فى الحكم إلا إنهم لم يشـاءوا أن يقتلوه وألزموه النفى وأن يقضى بقية حياته فى المسـتنقعات المتاخمة للبحر. وسـواء قـام النزاع من جراء ذلك أم غيرة وحسـدًا كما ذكرناه آنفا، فالواقع من الأمر أن أبسـماتيك اسـتدعى الجنود المرتزقة من قارية Caria وأيونية Ionia وانتصـر على خصومه فى المعركة التى دارت رحاها بالقرب من

(١) حكم أبسماتيك من سنة ٦٦٣ إلى سنة ٦٠٩ ق.م.

المدينــة التي تدعى موممفيس Momemphis وقتل بعض الملوك الذين تصدوا له، وطارد البعض الآخر إلى ليبيا. ولم يصبح لهم بعد من الطول ما ينازعون به السلطان.

٦٧ وبعد أن وطد أبسماتيك سلطانه في المملكة بأسرها، ابتنى البهو الخارجي في الجهة الشــرقية من معبد منف، وسور المحراب، واســتخدم عوضًا عن الأعمدة تماثيل ضخمة طول الواحد منها اثنا عشر ذراعًــا. وفضــلاً عن المرتبات التي وعد المرتزقــة بها، فقد أجزل لهم العطاء وأفرد المنطقة التي تســمى «المعســكر»[1] لســكناهم، وأقطعهم مساحات واسعة من الأرض إلى الجنوب قليلا من فرع النيل البيلوزى، ولما تولى أمازيس الملك بعد ذلك التاريخ بســنين عديدة نقلهم من ذلك الموضع وأسكنهم منف. ولما كان السلطان قد استقام لأبسماتيك بوساطة هؤلاء المرتزقة فقد آثرهم على غيرهم بالقيام على شئون الحكم، واستمر على انتهاج سياسة استخدام قوات كبيرة من الجنود المرتزقة. وحدث أنه عندما قام بحملة إلى ســوريا، أكبر من شــأن المرتزقة، بأن عهد إليهم بالطعام، وجعل موضعهم في الجناح الأيمن، أما القوات المصرية فقد صغر شــأنها وجعل مكانها الجناح الأيســر مــن الفيلق. فأحفظت هــذه الإهانة المصرييــن وكان عددهم يربو على المائتى ألف، فشــقوا عصا الطاعة، وزحفوا على بلاد الحبشــة عاقدين العزم على أن يفتحوا لأنفســهم بلادًا لهم وحدهم، فأوفد الملك أولاً بعض قواده ليعتذروا لهم عما لحق بهم من إهانة، فلم يأبهوا برســله، فتبعهم بنفسه في جمهرة

(١) اكتشف فلندرز بترى أحد هذه المعسكرات في تل دفنة غرب القنطرة.

مـن أصدقائه فى زوارق. وبينما كانوا مصعدين فى النيل، على وشـك عبـور الحدود المصرية، توسـل إليهم أن يثنوا عزمهـم، مذكرًا إياهم بمعابدهم ومسقط رءوسهم، وأزواجهم وأطفالهم، فرفعوا عقيرتهم جميعًا صائحين، ضاربين دروعهم بحرابهم، وقالوا ما دام سلاحهم طوع أمرهم فسيجدون وطنًا بسهولة. ثم رفعوا أرديتهم وأشاروا إلى سوءاتهم قائلين مـا دامت هـذه لنا فلن نعدم الزوجات والأبنـاء. وبهذه الروح العالية، مزدرين ما يضعه الآخرون فى المكان الأرفع من الأهمية. اسـتولوا على الجزء الأكبر من بلاد الحبشة، واختصوا أنفسهم بجزء كبير توطنوا به. ولقد غضب أبسماتيك لهذا المسلك أشد الغضب، ولكنه نظم الأمور فى مصـر، وبـذل عنايته فى تنمية الدخل الملكى وعقـد محالفة مع أثينا وبعض المدن اليونانية الأخرى، وأحسن إلى الأجانب الذين نزحوا إلى مصر للإقامة فيها بمحض رغبتهم، ولما كان شـديد الإعجاب بالثقافة اليونانية فقد نشـأ أبناءه تنشـئة يونانية. وبالجملة، فقد كان أول ملك فتح كل[1] أسـواق مصر للشـعوب الأجنبية. وضمن للأجانب النازحين إلـى مصر عبر البحار غاية الأمن. وقد حرّم أسـلافه من الملوك دخول مصر على الأجانب بأن قتلوا بعض النازحين إليها واسـتعبدوا البعض الآخـر. ولقد كان عدم ترحيب المصريين بالأجانب سـببًا فى أن صار ضلال بوسـيريس مضغة أفواه اليونانيين فلم يراعوا جانب الحق فيما

(١) يرى بعض النقاد أن النص يجب أن يتبع هنا فنقول «باقى» أسواق مصر، أى إن أبسماتيك فتح أولا الأسواق التى كانت تحت سيطرته ثم لما صار حاكما فتح للأجانب باقى أسواق البلاد.

وصفــوا من ضلاله، بل بولغ فيه إلى حد الخرافة لاســتفحال الفوضى فى هذه لبلاد.

٦٨ وبعــد أربعــة أجيال من حكم أبســماتيك تولــى أبريس[1] Apries الملــك مدة اثنين وعشــرين عامًا. وزحف على قبرص وفينيقية بقــوات برية وبحرية كبيرة، فأخذ صيدا عنوة، وألقى الرعب فى المدن الفينيقيــة الأخرى فوقعت فى يده. وبعد أن هزم القبرصيين والفينيقيين فى موقعة بحرية كبيرة غنم أسلابًا كثيرة ورجع إلى مصر، ثم أنفذ حملة كبيرة من بنى وطنه إلى طرابلس وبرقة. ولقد فقد الجزء الأكبر منها وشق الذيــن نجوا عصا الطاعة لــه وثاروا عليه لاعتقادهم أنه دبر هذه الحملة بغية القضاء عليهم حتى يكون أكثر اطمئنانا فى حكم ســائر المصريين. فبعث إليهم الملك بأمازيس[2] أحد أعيان المصريين رســولا، ولكن هذا لــم يعبأ بما أوصى به الملك من عقد صلــح مع الثوار، بل على العكس شــجعهم على التمادى فى العصيان، واشــترك فى الثورة، فانتخب هو نفســه ملكا، وبعد زمن غير طويل، انضم ســائر المصريين إلى الثوار، فاضطــر الملك إبريس، وقــد تملكته الحيرة، إلى أن يركن إلى المرتزقة وكان عددهم ثلاثين ألف رجل تقريبًا. ووقعت المعركة بينهم بالقرب من قرية مارية وكان النصر فيها حليف المصريين، وأسر الملك أبريس وقتل شــنقا، أما أمازيس فقد نظم شــئون الملك على الوجه الذى رآه مرضيًا، وحكــم المصريين وفقا للقوانين، فنال تأييدًا عظيمًا، وغزا مدن قبرص،

(١) يرجع الكثيرون أنه فرعون خفرع المذكور فى التوراة فى إرميا ٣٧، ٥ و٤٤، ٣٠.
(٢) أحمس الثانى مؤسس الأسرة السادسة والعشرين حكم مصر من ٥٦٩ – ٥٢٦.

وزيــن كثيرًا من المعابد بنصب جديرة بالذكر. ولقى حتفه بعد أن حكم خمسًــا وعشرين سنة حين زحف قمبيز ملك فارس على مصر فى السنة الثالثة من الالمبياد الثالث والستين الذى فاز فيه فى سباق الأستاديون[1] بارمينديس Parmenides من أهل قمارينة Camarina.

٦٩ الآن، وقــد ألممنــا إلمامــة مرضية بأعمال ملــوك مصر منذ أقــدم العصور إلى موت أمازيس فســنرجئ البقية الباقية، وسنســردها فى ســياقها التاريخى. وسنتحدث الآن عن عادات المصريين باختصار مقتصرين منها على أشــدها غرابــة وأعظمها فائدة للقــارئ. فكثير من العادات التى نشــأت فى مصر، لم تنل تأييد أهل البلاد فحســب، بل حظت بإعجاب اليونانيين الشديد، ولهذا كان أعظم من امتازوا بالتفوق الذهنى شــديدى الحرص على زيارة مصر ليتعلموا قوانينها ونظمها التى رأوها جديرة بالدرس. فبالرغم من الصعوبة التى كان الأجانب يلاقونها فــى زيارة البلاد فى العصور المتقدمة لما أســلفنا ذكره من الأســباب، فقــد حرص على زيارتها من القدماء أوروفيوس والشــاعر هوميروس ومن المحدثين فيثاغوراس Pythagoras من أهل ســامس Samos والمشــرع ســولون Solon وكثير غيرهــم. ويدعى المصريون أنهــم أول من عرف الحــروف الهجائيــة، ورصد النجوم. هذا إلى أنهم اكتشــفوا النظريات الهندسية، وأغلب الفنون، وسنوا أقوم الشرائع. ويقولون إن أقطع دليل على صحة ذلك أن مصر يحكمها منذ أكثر من سبعمائة وأربعة آلاف عام ملــوك جلهم من أبناء البلاد، وأنها كانت أكثر بلاد المعمورة خصوبة،

(١) مباراة فى السباق جريًا لمسافة ٦٠٦,٧٥ قدما وتعقد فى أوليمبيا.

فلو لم يلتزم سكان البلاد أحسن التقاليد والقوانين ولم ينتجهوا أصلح سبل التربية والتعليم لما كان الأمر كذلك فيما يزعمون. وسنضرب صفحًا عما لفقه هيرودوت[1] وبعض المؤرخين الآخرين عن مصر، فهم عوضًا عن التزام الحقيقة، وآثروا عامدين الإغراب وابتكار الأقاصيص لتسلية القارئ. وسنسرد هنا ما احتفظ به الكهنة المصريون في سجلاتهم من روايات وقد محصناها بدقة.

٧٠ فملوك المصريين لا يعيشون أولًا على نمط الحكام المستبدين في البلاد الأخرى، فيعملون ما يشاءون تبعًا لأهوائهم غير خاضعين لرقابة ما، فقد رسمت لهم القوانين حدود تصرفاتهم، لا في حياتهم العامة فحسب، بل في حياتهم الخاصة وأسلوب معيشتهم اليومية كذلك. فلم يكن للملك بين خدمه عبد واحد مشترى أو مولّد، بل كانوا جميعا من أبناء أشهر الكهنة، وقد جاوزا العشرين عمرًا، وتلقوا أعلى ثقافة في البلاد. وهكذا لا يتاح للملك وقد حف به أنبل الرجال للعناية ببدنه، وملازمته طوال النهار والليل، أن يأتي أعمالًا وضيعة. فما تمادى سلطان في الغواية إلا كان له من وليجته من يقوم على إرضاء شهواته. وكانت ساعات النهار والليل مرتبة بحيث كان على الملك أن يعمل في الوقت المخصص بالضبط ما يفرضه القانون لا ما تدفعه إليه نفسه. فقد كان عليه أولا عندما يوقظ في الصباح المبكر، أن يتسلم الكتب التي أرسلت إليه من جميع الجهات، حتى يستطيع أن ينجز على الوجه الأكمل جميع أعماله ومهامه، ويكون على علم تام بكل ما يحدث

(١) قرظ ديودور هيرودوت في الفصل السابع والثلاثين.

فــى جميع أنحاء المملكة، وعليه بعد ذلك أن يســتحم، وأن يلبس بزة فاخرة، ويزين بالأنواط الملكية، ثم يقرب القرابين للآلهة. وجرت العادة بــأن يقف رئيس الكهنة، عندما تحضــر العتائر إلى المذبح إلى جانب الملــك، ويصلى بصوت عال وقد أحاط بهما جمهور غفير من المصريين فيدعو للملك بالصحة وسائر الأنعم مادام منتهجًا سبل العدل إزاء رعيته. وكان مــن واجــب رئيس الكهنة أن يعلن صراحــة فضائل الملك واحدة فواحدة فيقول إنه يتقى الآلهة، شــديد الرحمة بالناس، حليم، عادل، كبيــر النفس، منزه عــن الخداع، يبذل ماله بســخاء، وبالجملة، فهو قابض على زمام شــهواته، يجزى المسىء بأقل مما يستحق من عقوبة، ويثيب المحســن بأوفى مما أســلف من إحسان، وبعد أن يعد كثيرًا مما شاكل هذه الفضائل، يصلى الكاهن القائم بالصلاة من أجل الخطايا التى صــدرت عن جهل، منزهًا الملك عن اللوم، ومســتمطرًا اللعنة والعقاب على خدامه الذين أفتوه بآراء خبيثة. ولقد كان الكاهن يقوم بذلك ليهدى الملــك إلى التقوى ومخافة الله، وليرشــده إلى حياة ترضاها الآلهة، لا عن طريق الزجر العنيف بل عن طريق المدح المستحب الداعى بصراحة إلى الفضيلة. وبعد ذلك حينما يفرغ الملك من فحص أحشــاء الضحية، ويطمئــن إلى الفأل الحســن. يقــرأ الكاتب بصوت مرتفــع من الكتب المقدسة طرفا من الحكم المفيدة، وأعمال مشاهير الرجال، حتى يتسنى لصاحب الســلطان على البلاد بأســرها أن يتملى فى قلبه أحسن أصول الحكم فيهتدى إلى الخطة القويمة فى تدبير شــئون الأقاليم. ولم يحدد

له القانون وقت تصريف شئون الحكم، أو عقد المحاكمات فحسب، بل حدد له كذلك وقت نزهته، واستحمامه، واجتماعه بزوجته. وبالجملة، فقد خصص له وقتًا معينًا لكل شأن من شئون الحياة.

وكان من عادة الملوك أن يتعاطوا اللحم الرخيص فيأكلوا لحم العجول والإوز فقط، ويشربوا قدرًا معينًا من النبيذ، لا يكفى لامتلائهم فوق الحد أو سكرهم.

وبالجملة فأسلوب حياتهم كان منظمًا تنظيمًا معتدلاً إلى حد أنه يبدو أن واضعه لم يكن مشرعًا بل أحسن الأطباء وضعه، وصحة الملك هدفه الوحيد.

٧١ وإذا بدا عجيبًا أن الملك لم يتمتع بالحرية المطلقة فى اختيار طعامه اليومى، فأشد عجبًا من ذلك بكثير أنه لم يكن فى قدرته أن يقضى فى المخاصمات أو يصرِّف ما يعن له من الأمور، أو يقضى بعقوبة على أحد من الناس مدفوعًا بكيد له أو غيظ منه، أو بأى دافع ظالم آخر. بل عليه أن يتصرف وفق ما تنص عليه القوانين فى كل حالة.

وبالرغم من التزامهم السنن التقليدية دائمًا، فقد كانوا بعيدين كل البعد عن أن يغضبوا أو يحملوا ضغينة فى قلوبهم لأحد. بل على العكس رأوا أنهم يحيون أسعد حياة. فقد كانوا يعتقدون أنه عندما يطلق غيرهم من الناس بدون روية العنان لنزعاتهم الطبيعية، يأتون من الأعمال ما ينطوى على الخسائر أو المخاطر، وأنه يحدث كثيرًا أن يرتكب بعض

النـــاس – مع علمهم بأنهم على وشـــك التردى فـــى الخطيئة – أعمالاً وضيعة لوقوعهم تحت ســيطرة الحـــب أو الكره أو غيرهما من العواطف الأخـــرى، بينما الملوك – بانتهاجهم أسلوبًا مـــن الحياة يحبذه أحكم الناس – يلتزمون جادة العدل إزاء رعيتهم فقد استشعر القوم نحوهم من الـــولاء ما يزيد عما يكنونه لأهلهم من حب فلا يولى الكهنة ولا ســـكان مصر كافة نســاءهم وأولادهم وســائر مقتنياتهم الثمينة مـــن الاهتمام ما يولونه لســلامة الملوك، ولذلك احتفظوا ردحًا طويلا من الزمان بالنظام السياســى الذى وضعه الملوك الذين أتينــا على ذكرهم، وظلوا يتمتعون بحياة ســعيدة جدًا فى ظل هذه المجموعــة من القوانين، هذا إلى أنهم قهروا شعوبًا كثيرة، وجمعوا ثروات طائلة وزينوا بلادهم بمبان ومنشآت لا تضارع، وجملوا مدنهم بشتى أنواع النصب الباهظة النفقات.

٧٢ وتنهـــض الحفلات التى تقام فى مصر بعد موت الملك دليلاً قاطعًا على ولاء الشعب لحكامه. فإن مايبعثه العرفان من تكريم يضفونه علـــى ملك لا يشـــعر به، ينطـــوى على برهان حقيقـــى على إخلاصهم. وعندما يفارق أحد ملوكهم هذه الحياة الدنيا يعم الحزن المصريين جميعًا فيمزقون ملابســـهم، ويغلقـــون معابدهم ويمتنعون عـــن تقديم الأضاحى للآلهة، ولا يحيون الأعياد اثنين وسبعين يومًا، ويخرج الرجال والنساء جميعًا، وقد لطخوا رءوسهم بالطين، وائتزروا فيما يلى الصدر بلباس من التيل الرفيع – فى جماعات مؤلفة من مائتين أو ثلاثمائة – فينشـــدون مرتيـــن فى اليوم المراثـــى ملتزمين الضرب ويرتلـــون المدائح للمتوفى، ذاكرين فضائله، ويصومون عن أكل اللحم والدســـم ويمتنعون عن تعاطى

النبيذ وسائر أنواع الترف، ولا يرضى أحد منهم أن يستحم أو يتطيب أو ينام على فراش وثير، أو يجرؤ على إتيان النساء، بل يحزنون حزنًا عظيمًا ويحدون طوال الفترة المذكورة، كأن الواحد منهم قد فقد ابنه العزيز، فيكونون في هذه الأثناء قد جهزوا ما يلزم لإقامة الشعائر الجنائزية تجهيزًا رائعًا. وفى آخر أيام الحداد يضعون النعش الذى يضم الرفات أمام مدخل القبر، ويشكلون - طبقًا للطقوس - محكمة لتنظر فيما قدم المتوفى من أعمال فى هذه الحياة الدنيا. وقد أباحوا لمن شاء أن يتهمه، أما الكهنة فتأبنه، معددة مناقبه، وألوف الناس التى اجتمعت لتشيعه تنصت إليها وتشترك فى تأبينه. هذا إذا كان المتوفى قد قضى حقًا حياة مجيدة، أما إذا كانت حياته على العكس وضيعة، تصايحت الجماهير. وقد حرم كثير من الملوك حق الدفن الرسمى الذى تخوله لهم الشرائع نتيجة لاعتراض الشعب. ولذلك كان من يخلفونهم على العرش يقيمون العدل لا لما أسلفنا من أسباب فحسب بل خوفا من العار الذى يلحق بأجسادهم بعد الموت، ومن اللعنة الأبدية كذلك. هذه إذن أهم التقاليد التى تتصل بالملوك القدامى.

٧٣ ومصر بأجمعها مقسمة إلى مديريات متعددة تسمى الواحدة فى اليونانية مقاطعة، يعين لها مدير له حق الإشراف والمراقبة التامة فيها. وتنقسم البلاد فوق ذلك إلى ثلاثة أقسام كان أولها فى حوزة الكهنة[1] الذين كانوا يتمتعون باحترام عظيم بين الشعب، لتفرغهم لأمور الدين،

(١) جاء ذكر نظام الطبقات فى مصر فى هيرودوت ٢، ١٦٤ - ١٦٨، واسترابون ١٧، ١، وأفلاطون، «تيماوس» ص ٢٤، وأيسقراط، «بوسيريس» ١٥، ١٦، وكلهم مجمعون على أن الطبقة الأولى مؤلفة من الكهنة والثانية من الجند.

ولمـا يبدونه لتفقههم من فرط الذكاء. وهـم ينفقون من دخلهم هذا على جميع الأضاحى التى تقرب فى مصر، ويكفون مؤنة معاونيهم، ويدبرون حاجياتهـم الخاصة، وذلك للاعتقاد السـائد بأن عبـادة الآلهة يجب ألا ينالهـا التحريف، ويتحتم أن تقوم بها دائما طبقة بعينها بأسـلوب بعينه، وينبغى للذين يعنون بشـئون الدين نيابة عن الجميع ألا تعوزهم ضـرورات الحياة. وعلى العموم فقد كان الكهنة يتشـاورون فى أمهات المسـائل، ويلازمـون الملك، تارة كمعاونيه، وتـارة كوزرائه ومعلميه، وهم ينبئون الملك بالمسـتقبل بوسـاطة التنجيـم والعيافة، ويقرءون له من سـفر الأعمال فى الكتب المقدسـة ما عسـاه أن يكون مفيدًا، وليس الحـال هنـا كما هو عند اليونان، إذا يمثل رجـل واحد أو امرأة واحدة هيئة الكهنـوت، بل يقف الكثيرون منهم حياتهم على العبادة وتقريب الأضاحى للآلهة، ويورثـون أعقابهم نفس مهنتهم فى الحياة. والكهنة معفون من جميع الضرائب، وهم يأتون بعد الملك فى الشهرة والسلطان. وكان القسم الثانى من نصيب الملك. يستقى منه دخله الذى يموِّل منه الحـرب، وينفق منه على بلاطه الرائع، ويثيب الأبطال بمنح تناسـب جدارتهـم، ولما كانت مـوارده هذه تفىء عليه دخـلا كبيرًا، لم يرهق الناس بالضرائب. أما القسـم الثالث فقد وقف على الفئة التى يسمونها المحاربين وهى التى تقوم بالخدمة العسكرية.

والحكمة فـى ذلك أنه ينبغى أن يكون المحاربون الذين يجازفون بأرواحهم أشـد الناس تعلقـا بأوطانهم، فيتحمسـون لفضل هذه المنح العقاريـة فـى مواجهة ما تنطـوى عليه الحرب من أخطـار، لأنه من

السخف أن تكل سلامة الشعب بأسره إلى فئة ليس لها في البلاد التي ستحارب من أجلها نصيب كفيل بإثارة نخوتها. هذا ولكن أكثر الاعتبارات أهمية أن المحاربين إذا كانوا في بحبوحة من الرزق أقبلوا على إنجاب الأبناء، فيزيدون بذلك من تعداد الشعب إلى حد يجعل البلاد في غنى عن استخدام الجنود المرتزقة. ولما كان المحاربون يرثون حرفتهم عن آبائهم، فإن بطولة آبائهم تحفزهم إلى المجد، ولما كانوا شديدي الاهتمام منذ طفولتهم بالأعمال الحربية، فإنهم يشبون أبطالاً لا تقهر في ميدان الجرأة والحنكة.

٧٤ وهناك ثلاث طبقات أخرى في الدولة، وهي الرعاة والفلاحون والعمال. فالفلاحون يؤجرون الأرض الخصبة الخاصة بالملك والكهنة والمحاربين نظير أجر زهيد، وهم يقضون كل حياتهم في فلاحة الأرض، ويفوقون بكثير فلاحي سائر الشعوب مهارة. لأنهم يتدربون على الأعمال الزراعية منذ نعومة أظفارهم. وهم أيضًا أدق منهم جميعًا علمًا بطبيعة الأرض وطرق ريِّها، ومواقيت البذر والجني وسائر عمليات جمع المحصول. وهذه المعلومات استقوا بعضها من ملاحظات أجدادهم، والبعض الآخر من تجاربهم الشخصية. وينطبق هذا الوصف كذلك على طبقة الرعاة، فقد كانوا يخلفون آباءهم على حرفة رعي الماشية كما لو كان ذلك طبقًا لقانون المواريث. فيقضون حياتهم طولها في الرعي وقد أخذوا عن أجدادهم معلومات كثيرة عن أحسن طرق رعي الماشية وتربيتها، ووقعوا هم أنفسهم على معلومات غير قليلة لشدة شغفهم بفنهم. ومما يدعو إلى الدهشة حقًا، أن مربيّ الدجاج والإوز

يحصلــون، لما امتازوا به من مهارة فنيــة لفرط ولعهم بصناعتهم، على مقاديــر لا تحصــى من الدواجن، فضلا عن الدواجــن التى تنتج بطريق التفريخ الطبيعى الذى يكتفى به سائر الناس. ذلك بأنهم لا يستخدمون الدواجــن فــى تفريخ البيــض، بل يقومون هم أنفســهم بذلــك بطريقة صناعية عجيبة، فيحاكــون بما هم عليه من فطنة ومهارة قوى الطبيعة ومهارتها. ويلاحظ كذلك أن الناس فى مصر يبذلون الجهد فى الصناعة حتــى تتقدم وترتقى إلى غايتها المرموقة. فمصر هى البلد الوحيد الذى لا يسمح فيه للصناع بممارسة عمل آخر، أو التدخل فى شئون السياسة، بل يلتزمون ماورثوا عــن آبائهم من حرف طبقًا لنصوص القانون، حتى لا تقف منافســة المعلم أو مشاغل السياسة أو أى شىء آخر حجر عثرة فــى طريق انكبابهم على صناعتهم. هــذا فى حين أننا نجد الصناع فى الشعوب الأخرى موزعى الهمة بكثير من المشاغل فيدفعهم الجشع إلى عدم الاستمساك بحرفتهم، فيتعلق البعض منهم بالزراعة ويساهم البعض الآخر فى التجارة، ويمارس البعض الآخر حرفتين أو ثلاثة، وفى البلاد الديمقراطية[1] يهرع الصناع فى جماعات كبيرة إلى المجالس التشــريعية فيقوِّضون دعائم النظام السياســى، ويكتســبون المال مــن أيدى باذلى الرشاوى، أما فى مصر فيستهدف الصانع الذى يتدخل فى السياسة أو يمتهن أكثر من حرفة واحدة لأشــد العقوبات. هذا إذن تقسيم الأمة إلى طبقات كما وضعه ســكان مصر القدامى، وذلك مبلغ استمســاك كل فرد منهم بطبقته الخاصة التى ورثها عن أسلافه.

(١) يظهر أن ديودور يعنى أثينا على التخصيص.

٧٥ وأولــوا القضاء اهتمامًا عظيمًــا معتقدين أن لأحكام المحاكم تأثيرًا كبيرًا فى الحياة العامة، وذلك بسـببين، فقد كان من الجلى أن الوسـيلة المثلى لردع الجرائم هى معاقبـة الجناة والانتصار للمظلومين. لأنــه إذا فقــدت المحاكم هيبتها لدى الخارجين علــى القانون، بعامل الرشــوة أو مراعاة الخواطر. تفشت الفوضى فى الحياة العامة. وتوصلوا إلى غرضهم هذا بتنصيب أفضل الرجال من أحسن المدن قضاة عموميين. فقد كانوا ينتقون من كل من هليوبوليس وطيبة ومنف عشرة قضاة، وهذه الهيئة لا يمكن أن تعتبر أقل شــأنًا من مجلــس الأريوباجوس فى أثينا أو مجلس الشــيوخ عن الإســبرطيين. ويجتمع هؤلاء الثلاثون وينتخبون من بينهم أفضلهم رئيسًــا للقضاة، ثم ترســل المدينة قاضيًا آخر ليشغل مكانه. وكان الملك يصرف للقضاة مرتبات تسد حاجتهم، وتكفى لإقامة أودهم، أما رئيس القضاة فكان يصيبه أضعاف هذا القدر. وكان من عادة كبير القضاة أن يحمل قلادة ذهبية يتدلى منها تمثال صغير من الأحجار الكريمة يســمونه «الحق». وكان القضاة يأخذون فــى النظر فى القضايا حينما يتقلد كبيرهم صورة الحق. وكانت القوانين كلها مدونة فى ثمانية كتب، توضع بجانب القضاة.

وجــرت العادة بأن يكتب المدعى شــكواه بالتفصيــل مبينًا كيف حدثت الواقعة ومبلغ الضرر، فيأخذ المدعى عليه عريضة خصمه، فيرد علــى كل نقطة فيهــا مدافعا بأنه لم يرتكب هذا الأمــر، أو أنه ارتكبه ولكــن لا إثم فيــه، أو أنه أثِمَ حقًا ولكنه يســتحق عقوبة مخففة. وبعد

ذلك يفند المدعى أقوال خصمه مستندًا إلى نصوص القانون، ثم يدفع المدعى عليه الاتهام مرة أخرى. وبعد أن يقدم كلا الخصمين العرائض التى كتباها إلى القضاء مرتين، يتعين على القضاة الثلاثين حينئذ أن يتفقوا فيما بينهم على الحكم، فيضع رئيس القضاة تمثال «الحق» على أحد جانبى الخصومة.

٧٦ هذه إذن هى الطريقة التى اتبعها المصريون فى جميع محاكماتهم، معتقدين أن الخصوم يلقون بمرافعاتهم ظلًا كثيفًا على الحق، ذلك أن براعة الخطباء، وسحر بيانهم، ودموع الذين يستهدفون للخطر من المتهمين، تدفع الكثيرين إلى التغاضى عن صرامة القانون، وقسوة الحق. ومهما يكن من شىء فالملاحظ أنه كثيرًا ما تخدع براعة المحامين رجالا من أفاضل القضاة، إما بخدعة، أو بسحر البيان، أو بإثارة مشاعر الرحمة فيهم. ومن ناحية أخرى، فقد رأى المصريون أنه إذا قدم المتقاضون عرائضهم كتابة كانت المحاكمة دقيقة، إذ تكون الحقائق المجردة فقط محل النظر. وبالأخذ بهذا النظام على الخصوص لا تكون اليد العليا للموهوب دون الخامل، ولا للمحنك دون الغر، ولا للكاذب الجرىء دون الصادق الحيى الطبع، بل يلقى الجميع العدل على قدم المساواة، لأن الوقت سينفسح على هذا النحو للخصوم لفحص حجج خصومهم، وللقضاة للموازنة بين حجج جانبى الخصومة.

٧٧ ونظن الآن، وبعد أن تحدثنا عن تشريعهم، أنه ليس من غير المناسب فى بحثنا هذا أن تأتى على ذكر بعض القوانين المصرية

التـــى امتازات بقدمها الســحيق، أو اتخذت وضعًا شــاذًا، أو يمكن أن تكــون ذات فائــدة لمحبى الاطــلاع. فأولاً: كان المــوت عقوبة اليمين الكاذبــة، على اعتبار أنها تنطوى علـــى جريمتين كبيرتين، الكفر بالله وخـــرق أعظم ضمان للثقة بين الناس. وثانيًا، إذا رأى أحد أثناء تجواله فـــى البلاد رجلًا يُقتل أو يعانى على أى وجه أذى ما، دون أن ينقذه، وكان قادرًا على ذلك، استحق عقوبة الموت، أما إذا لم يكن حقًا قادرًا على مدّ يد المساعدة، تحتم عليه دائمًا أن يبلغ عن اللصوص ويقتفى أثر الجريمة. ومن تهاون فى ذلك، وقد نص عليه القانون، يجلد عددًا معينًا مـــن الجلدات، ويحرم الأكل بتاتًـــا ثلاثة أيام متوالية. ويلاقى أصحاب البلاغ الكاذب نفس العقوبة التى يســتحقها المبلغ ضدهم لو أنه ثبتت إدانتهـــم. هذا إلى أنه على المصريين عمومًا أن يقدموا لموظفى الحكومة كشـــفًا عن مصدر كسب كل منهم لمعاشه، والموت بالضرورة عقوبة كل من يزور فى هذا الكشـــف، أو يكون مورد رزقه حرامًا. ولقد نقل صولون فيما يقال هذا القانون إلى أثينا حينما زار مصر. ونصت القوانين على أن الموت عقوبة كل من يقتل عمدًا رجلًا حرًا كان أم عبدًا. وذلك لغرضين: أولهمـــا ردع الناس كلهم عن الإثم بعقوبة لا تختلف باختلاف حظوظهم فـــى الحياة، بل تبعًا لنياتهم فـــى أعمالهم، وثانيهما تعويد الناس على أن الأولى بهم الامتناع بتاتًا عن الاعتداء على الأحرار. ولم تســـن عقوبة الموت للآباء الذين يقتلون أبناءهم، بل فرض عليهم أن يظلوا ثلاثة أيام وثلاث ليال ســـويًا حاملين جثة القتيل باستمرار، تحت إشراف حراس

رسميين. فلم يرَ المصريون أنه من العدل أن يحرموا الحياة أولئك الذين منــوا بها على أولادهم، بل رأوا العــدل فى أن يصرفونهم عن مثل هذه الجرائم بعقوبة تبعث الألم والتوبة. أما الأبناء الذيت يقتلون آباءهم، فقد ســنوا لهم عقوبة غريبة. فإن من تثبت إدانتهم بهذه التهمة تقتضب من أجسامهم بقصب مسنون قطع بحجم الإصبع، ويشوون أحياءً على فراش من قتاد. فقد رأوا أن أشــنع جرائم الإنســان أن يقضى بالقوة على حياة الذين منحوه الحياة. والنســاء اللائى يقضى فيهن بالموت لا ينفذ فيهن الحكــم إذا كــنَّ حبالى قبل أن يضعن، وقد نقــل كثير من دول اليونان هذا القانون. فقد رأوا أنه من الظلم المحض أن يشــارك الجنين البرئ أمه المذنبة فى جريرة ذنبها، أو أن يقتص من اثنين لوزر واحد، أو أن يتعرض الجنين لنفس عقوبة أمه مع أنه لا يعى شــيئا البتة، فى حين كان ارتكاب الجريمة مع ســبق الإصرار، وأهم الاعتبارات كلها أنه من غيــر المفهوم أن يقضى بالموت على الجنين وهو ملك مشــاع بين الأب والأم، فى أن الوزر منســوب إلى المرأة الحبلى وحدها. ومن الجائز أن تعتبــر القضاة الذين يبقون على حياة المجرم الذى أدين بجريمة القتل، والقضاة الذين يقضون على حياة من لا ذنب لهم البتة، سواء فى الجور. هــذه إذن بعض القوانين المتعلقة بجريمة القتل وقد اشــتهرت فوق كل شىء بإصابتها البالغة.

٧٨ ولا ينص قانونهم العسكرى على عقوبة الموت جزاء لمن يفر مــن الجندية أو يعصى أوامر قواده، بل عقوبته فقدان الاعتبار، فإذا ما

مَحَـا أحدهم عاره بأعمال البطولة، رد له اعتباره كما كان. وهكذا جعل المشـرع عقوبة فقدان الاعتبار أشـد من عقوبة الموت حتى يعوِّد الناس على النظر إلى العار باعتباره أعظم الشرور. هذا من ناحية، ومن ناحية أخـرى، رأى المشـرع أن الذين يقضي فيهم المـوت لا يفيدون الحياة العامـة بشـيء، بينما الذين يفقـدون اعتبارهم قد يكونـون مصدر خير كثير لحرصهم على استرداد اعتبارهم. أما الذين يفشون الأسرار للأعداء فقد قضى القانون بانتزاع ألسـنتهم. والذيـن يزيفون النقود، أو يطففون الموازين والمكاييل، أو يزورون الأختام، وكذلك الكتبة العموميون الذين يزورون فى متون السـجلات، أو يمحون شيئًا من نصوصها، أو يبرزون عقودًا مغشوشـة، فقد قضـى القانون بقطع كلا أيديهـم جميعًا. وهكذا يحمـل المجرم الذى ينزل العقاب بالعضو الذى اسـتخدمه من ارتكاب جرمه جرحًا لا يندمل إلى يوم مماته، فيكون عظة للآخرين بما لقى من جزاء، ويصرفهم عن اقتراف أمثال هذه الجرائم. وكانت القوانين عندهم فيما يتعلق بالنساء صارمة كذلك. فقد كان الخصاء عقوبة كل من يغتصب المرأة الحرة، فقد رأوا أن المغتصب بارتكابه جريمة واحدة يقترف ثلاثا مع أشـنع الآثام: انتهاك الحرمة، والزنا، وخلط أنسـاب المواليد. أما إذا زنـى أحـد بامرأة برضاها فقد قضى القانـون بأن يجلد الرجل ألف جلدة، وأن يجدع أنف المرأة، فقد اعتقدوا أن المرأة التى تزيّن للمعصية الجامحة يجب أن تحرم أكبر مقومات الجمال.

٧٩ وتُنْسـب قوانين المعامـلات لبوخوريس، وهى تقضى من ناحيـة، بـأن من اقترض مـالًا دون إيصال وأنكر الديـن، يُعفى من

ســداده إذا حلف اليمين على ذلــك. والغرض الأول من هذا النص أن يستشــعر الناس مخافة الله بتعليقهم أهمية عظمى على اليمين، ذلك بأنــه لما كان من الجلــيّ أن الذى يحلف أيمانًا كثيرة يفقد آخر الأمر ثقــة الناس فيه، فإن الجميع ســيعلقون أهميــة عظمى على اجتناب اللجــوء إلى الحلف، حتى لا يفقدوا ثقة الناس فيهم. والغرض الثانى للمشــرع من جعل الثقة بأكملها قائمة على الشرف هو تشجيع الكافة علــى أن يكونوا فضلاء فلا يُعرف عنهم أنهم غير أهل للثقة. هذا إلى أن المشــرع رأى أنــه من الظلم ألا يوثق بالذيــن كانوا محل ثقة دون أن يحلفــوا اليمين إذا حلفوها فيما يتعلق بالدعوى نفســها. أما الذين يقرضون أموالا بإيصــالات فقد قضى القانون بألا يزيد رأس المال عن طريق الفائدة إلى أكثر من الضعف.

أمــا عن المدين، فقد قضى المشــرع بأن يكون اســتيفاء الدين من ممتلكات المدين وحدها، ولم يجز قط أن يكون شــخص المدين فى أى ظـرف من الظروف رهينــة لدينه[1] فقد رأى أنه ينبغى أن تكون الأرض ملكًا للذين يعملون عليها أو الذين أخذوها هدية من أصحابها. أما الناس أنفســهم فيجب أن يكونوا ملكًا للدولة حتى تســتأديهم مالها عليهم من واجبات فى الحرب والســلم جميعًا. فقد رأى أنه من السخف أن يُلقى الدائــن القبض على جنــدى وفاء لدينه وهو يواجــه الأخطار دفاعًا عن

(١) كان القانون المصرى القديم ينص على استرقاق المدين إذا لم يف بدينه، ثم ألغى هذا القانون، ولكنه أصبح نافذًا فى القرن السادس ق. م. فى عهد أمازيس، وألغى بعد ذلك إلى أن أحياه البطالمة من جديد

بلاده، فتتعرض سـلامة الجميع للخطر من جراء جشـع بعض الأفراد. ويبدو أن صولون نقل هذا القانون كذلك إلى أثينا وسماه قانون «تخفيف الالتزامات»[1] وأعفى بمقتضاه الآثينيين كافة من سداد الديون التى كان ضمانها شخص المدين. ويلوم البعض - بحق - أغلبية مشرعى اليونان الذين حرموا الاسـتيلاء على العُدَدِ والمحاريث وسائر الآلات الضرورية ضمانًا للدين، مع أنهم أباحوا ارتهان الأنفس التى تستخم هذه الآلات.

٨٠ وكان القانون الخاص باللصوص عند المصريين عجيبًا كذلك. فقد فرض على من يريد احتراف هذه المهنة أن يقيد اسـمه لدى رئيس اللصوص وأن يتعاقد على أن يبلغه بأمر المسـروقات فورًا. وعلى ضحايا السـرقة أن يبلغوا الأمر كذلك إليه مبينين المسروقات بالتفصيل ذاكرين المكان واليوم والساعة التى ارتكبت فيها السرقة، وبهذه الطريقة يهتدون إلى كافة المسروقات بسـهولة. وكان على ضحية السرقة أن يدفع ربع قيمة المسـروقات لمجرد اسـترداد ما كان ملكًا له. ذلـك بأنه لما كان من غير الممكن أن يمتنع الكافة عن السـرقة فقد ابتكر المشـرع طريقة يمكن بواسـطتها استرداد جميع المسروقات مقابل فدية صغيرة، ويتخذ الكاهن فى مصر زوجًا واحدة أما سـائر الرجال فيتخذون من الأزواج ما يشـتهون. والآباء ملزمون بتربية أولادهم جميعًا[2] لزيادة تعداد السكان.

(١) أصدر صولون هذا القانون سنة ٥٩٤ ق . م . وأعتق بمقتضاه كل من كان استرقاقهم بسبب عدم وفاء دين.

(٢) يعنى أن وأد الأطفال بتركهم فى العراء، وقد كان داء فاشيًا فى بلاد اليونان، وكان محرمًا فى مصر.

فقــد رأوا أن ذلــك يزيد عمار البلاد والمدن. وهم لا يعتبرون أى ولد ابنًا غير شرعى ولو كان ابن أمة مشتراة، وبالجملة فهم يعتبرون الأب وحده مسـئولا عن إنجــاب الأطفال، أما الأم فتزود الجنيــن بالغذاء والجُنَّة، ويدعون الشجر الذى يحمل الثمر ذكرًا والذى لايحمل ثمرًا أنثى بعكس الاصطلاح اليونانى.

ويربى المصريون أبناءهم بيسر واقتصاد فوق الإدراك، فهم يقدمون لهم عصيدة مصنوعة من أى مادة رخيصة متوفرة، وســوق نبات البردى التى يمكن أن تشوى على النار، وجذور وسوق النباتات المائية، بعضها نيئ وبعضها مطبوخ والبعض الآخر مشوى. ولما كان معظم الأبناء يمضون شــبابهم لحسن مناخ البلاد حفاة عراة، فإن جميع ما يتحمله الآباء من نفقات إلى أن يبلغ الابن أشــده لا يزيد على عشرين دراخمة. وهذا أهم الأسباب الرئيسية التى أصبحت مصر من أجلها بلادًا ممتازة بوفرة عدد ســكانها، وإلى تلك الحقيقة الأخيرة يرجع الســبب فى أن مصر تضم عددًا كبيرًا من الآثار العظيمة.

٨١ ويعلــم الكهنــة أبناءهم نوعين من رســم الحروف، الرســم الذى يدعى «الكتابة المقدســة» والرســم الذى يستعمل فى العلوم الأكثر شيوعا[١]، وهم يبذلون جهدهم بنوع خاص فى علم المساحة والحساب. وذلــك لأن النهــر يغيِّر وجــه الأرض كل عــام بطرق مختلفــة، ويثير المنازعــات بين الجيران على الحدود، وليس من الســهل حســم هذه

(١) كان للمصريين ثلاثة أنواع من الكتابة: الهيروغليفية، والهيراطيقية، والديمقراطية، ولكن ديودور، وشأنه فى ذلك شأن هيرودوت، لم يستطع أن يفرق بين الرسمين الأولين.

المنازعات على وجه الدقة إلا إذا اهتدى المساح إلى الحقيقة بخبرته وفنّه. أما الحساب فيفيدهم فى تدبير شئونهم اليومية وفى تطبيق نظريات المساحة. والحساب إلى جانب ذلك ليس قليل النفع للذين ينصرفون إلى علم الهيئة، فاهتمام المصريين بأوضاع النجوم وحركاتها أكبر مما يوليها أى شعب آخر من الاهتمام. فهم يحتفظون بأزياج عن كل واحد منها منذ عدد لا نتصوره من السنين.

ولما كانوا شغوفين بهذه الدراسة منذ عهود سحيقة القدم، ورصدوا باهتمام عظيم حركات الأجرام ومداراتها ومواضعها وقدرة كل منها على خلق الكائنات الحية، وتأثيرها الحسن والسيِّيء فيها، فكثيرا ما تكهنوا بما سيقع للناس من حوادث، وفى غير قليل من المناسبات تنبأوا بفساد المحصول أو على العكس بوفرته أو أن الطاعون سيتفشى فى الناس والماشية جميعا، وأتاح لهم رصد النجوم لآماد طويلة علما سابقا بالزلازل والفيضانات وظهور المذنبات وجميع الظواهر التى رأى الناس أنها مما لا يُتكهن به ويدّعى المصريون أن الكلدانيين فى بابل جالية مصرية، وأنهم مدينون بشهرتهم فى علم الهيئة للعلم الذى أخذوه عن الكهنة المصريين.

أما سائر أهل مصر فيتعلمون من آبائهم أو أقربائهم الصناعات اللازمة لضرب من ضروب الحياة المختلفة، كما أسلفنا فى ذلك القول[1]. أما القراءة والكتابة فيتعلمون منها نذرا يسيرا، وهذا لا يجرى على الجميع، بل يسرى على أولئك الذين يمارسون الصناعات بالتخصيص.

(١) راجع الفصل ٤٣، ٧٠، ٧٤

ولـم يجر العرف بينهم بأن يتربوا على الرياضة البدنية[1] والموسيقى، ذلك بأنهم يعتقدون أن الأحداث لا يكتسبون الصحة بتمريناتهم اليومية فى منتديات الألعاب الرياضية، بل يصيبون قوة عارضة قريبة الزوال، أما الموسيقى فقد كانت فى رأيهم عديمة الفائدة، بل ضارة إذ إنها فى الواقع تدخل التخنث على السامعين.

٨٢ وعالجوا أجسامهم توقيا للأمراض بالحقن والحمية والمقيّئات يتناولونها أحيانا كل يوم، وأحيانا أخرى بعد ثلاثة أو أربعة أيام. فهم يقولون إن الجزء الأكبر من مجموع الغذاء الذى نتناوله زائد عن الحاجة، وأنه يولد الأمراض، وإذن فالعلاج الذى ذكرنا يستأصل المرض ويضمن الصحة، وفى أثناء الحملات الحربية أو الرحلات إلى داخل البلاد، يعالج الجميع دون أن يُطالَب أحد بأجر، ذلك أن الأطباء يتقاضون معاشهم من الحكومة، وهم يصفون العلاج طبقا لأصول مكتوبة، وضعتها طائفة من مشاهير الأطباء المتقدمين، وإذا أمعن الطبيب النظر فى الأصول المثبتة فى النصوص المقدسة واتبعها، ولم يستطع مع ذلك أن ينقذ المريض فلا جناح عليه، وهو براءة مما قد يتهم به، أما إذا انتهج نهجا يناقض الأصول فيقدم إلى المحاكمة وعقوبته إذا أدين الموت، فقد رأى المشرع أن قليلين من عساهم أن يكونوا أكثر علما من الأصول التى وضعها أئمة الصناعة وظلت مرعية منذ قرون عديدة.

٨٣ أما الحيوانات المقدسة فى مصر، فهى ظاهرة تبدو بالطبع غريبة للكثيرين، وجدير بالبحث والتمحيص، فالمصريون يبالغون فى

(١) أشار هيرودوت ٢، ٩١ إلى مباراة رياضية فى أخميم

تقديس بعض الحيوانات، لا وهى فى قيد الحياة فحسب.. بل بعد مماتها أيضا، وهذه الحيوانات هى القط، والنمس، والكلب، والصقر، والطائر الذى يسمونه الأبيس (أبو منجل)، يضاف إليها الذئاب والتماسيح وكثير غيرها مما يشاكلها، وسأحاول أن أذكر أسباب هذه العبادة بعد أن أتحدث أولا باختصار عن هذه الحيوانات نفسها، يوقف أولا على كل نوع من الحيوانات المقدسة أرض تكفى غَلَّتُها للعناية بها وتغذيتها، فالمصريون يوفون النذور من أجل أبنائهم إذا نجوا من مرض فيحلقون رءوسهم ويزنون الشعر بفضة أو ذهب ويهبون زنته للذين يقومون على خدمة الحيوانات المذكورة، والذين يرعون الصقور يقطعون لها اللحم شرائح، وينادونها بأعلى صوتهم، ويظلون يلقون الشرائح إليها وهى محلقة إلى أن تلتقطها، أما القطط والنموس فينبسون لها ويطرحون على الأرض الخبز الملوَّق باللبن، أو يقطعون لها السمك النيلي ويطعمونها إياه نيئا، وهكذا يقدِّمون الغذاء المناسب لكل نوع من الحيوانات الأخرى، ولا يتخلى المصريون مطلقا عن تأدية شعائر هذه الحيوانات، ولا يخجلون من أن يراهم الناس يؤدونها، بل على العكس، يتيهون بها كِبرا كما لو كانوا يؤدون أقدس شعائر الآلهة. ويطوِّفون فى المدن والقرى حاملين شارات خاصة، وعندما يرى المارة من بعيد لأى حيوان تقام الشعائر، يخرون له سجدا ويتعبدون، وعندما يموت أحدُ هذه الحيوانات المذكورة، يلفونه فى سندس ويضربون صدورهم معولين، ويحملونه ليحنط. وبعد أن تعالج الجثة بزيت الأرز وببعض المواد

الأخرى التى لها خاصة إكسـابها رائحـة ذكية، وحفظها وقتا طويلا، يضعونها فى تابوت مقدس.

ومـن يقتل عامدا أحد هـذه الحيوانات يلاق الموت، أما من يقتل قطا أو أبامنجل فسواء قتلها عامدا أم غير عامدٍ فالموت نصيبه على كل حال، إذ يهجم العامة على المذنب ويسومونه سوء العذاب دون محاكمة فى بعض الأحيان. وإذن فكل من يرى واحدا من هذه الحيوانات ميتا، يبتعـد إلى مكان قصى ويصيح ويولول مشـهدا النـاس، خوفا من مثل هذا المصير، على أنه عثر على الحيوان وقد نفق. ولقد امتزج الخشـوع لهذه الحيوانات بقلوب العامة وظلت نفوسهم متشبثة بأمر عبادتها إلى حد أنه فى الفترة التى سـبقت منـح الرومانيين مليكهم بطليموس لقب «صديق روما»، حدث أن قتل أحد الرومان قطة، فهجم العامة على بيت الجانـى، بالرغـم من أن الجمهور كان يبذل قصارى جهده لاسـترضاء البعثة الموفدة من إيطاليا، وكان لخوفه شـديد الحرص على ألاَ يزودها بذريعـة واحدة للشـكوى أو إعلان الحرب عليهم، فلـم يُجْدِ الموظفون الذين أرسلهم الملك للتوسط، ولا ما كان يستشعره الجميع نحو روما من خوف، فى نجاة الرجل من العقاب، هذا مع أنه ارتكب هذه الفعلة غير عامدٍ، وهذه القصة التى رويناها لم تأتنا عن طريق السماع، فقد شاهدنا نحن هذه الواقعة أثناء زيارتنا لمصر.

٨٤ وقـد تبـدو هـذه القصة للكثيريـن غير معقولـة وقريبة من الخرافة، وستبدو القصة التى ستعقبها أكثر غرابة، إذ يحكى أن القحط

هصر المصريين مرة فصاروا فى عوزهم يأكلون بعضهم بعضا، ولكن أحدا منهم لم يتهم- مجرد تهمة- بتناول أحد الحيوانات المقدسة، بل فضلا عن ذلك، فإن البيت الذى يُعثر فيه على كلب ميت، يحلق سكانه جميعا أجسامهم كلها ويحدّون، وأشد من هذا غرابة، أنه إذا اتفق أن كان مخزونا فى الغرفة التى مات فيها واحد من هذه الحيوانات نبيذ أو خبز، أو شىء ما من ضرورات المعيشة، فإنهم لا يفكرون مطلقا فى استعماله بعد ذلك فى غرض ما. وإذا كانوا فى حملة حربية فى مكان ما من بلاد أجنبية، افتدوا القطط والصقور وأحضروها إلى مصر، وهذا دأبهم حتى لو كانت مؤنهم على وشك النفاد.

ومن السهل وصف ما يصنعون هنا للعجل أبيس فى منف، والعجل منيفيس فى هليوبوليس والجدى فى منديس والتمساح فى بحيرة موريس والأسد الذى يبقونه فى المدينة التى تسمى لينوبوليس (مدينة الأسد) وكثير غيرها، ولكن من الصعب أن يصدق ما تقول من لم ير ذلك رأى العين.

فالمصريون يبقون هذه الحيوانات فى حُجُرات مقدسة، ويقوم على خدمتها كثيرٌ من الأعيان، ويقدمون لها أفخر الطعام، وهم يدأبون على تزويدها بالقمح المطحون أو المجروش المغلىّ فى اللبن، وكل أنواع الفطير الممزوج بالعسل، ولحم الإوز مطبوخا ومشويا، أما الحيوانات آكلة اللحوم، فيصيدون لها طيورا كثيرة ويلقونها إليها. وبالجملة فهم يبذلون قصارى جهدهم فى تقديم أفخر الطعام إليها،

ولا ينفكون يهيئون لها الحمامات الساخنة. ويعطرونها بأحسن الطيب، ويحرقون لها جميع أنواع البَخُور الذكى، ويوفرون لها أغلى السُررُ والحلى النفيسة، ويفرغون وسعهم لتمكينها من معاشرة بعضها البعض وفق سنن الطبيعة. فيبقون مع كل واحدٍ من هذه الحيوانات أحلى الإناث من نوعه، ويسمونها السرايا، ويبذلون فى خدمتها أبهظ التكاليف وأشق الخدمات، وإذا مات أحد هذه الحيوانات حزنوا عليه حُزن من ثكلوا أولادهم الأعزاء.. ولا ينفقون على دفنه قدر طاقتهم بل يسرفون فى ذلك منفقين أكثر مما ملكت أيديهم بكثير. فقد حدث- مثلاً- بعد موت الإسكندر، وبعد أن صارت مصر فى حوزة بطليموس ابن لاجوس مباشرة، أن أسن العجل أبيس ونفق. فأنفق الموكّلون به فى دفنه كل الأموال الطائلة التي كانت قد تكدست لكفالته واقترض فوقها بطليموس خمسين طالنطا من الفضة. وأدهى من ذلك أن بعض الموكلين بهذه الحيوانات أنفق على دفنها فى أيامنا هذه ما لا يقل عن مائة طالنط.

٨٥ وينبغى الآن أن أضيف إلى ما تقدم وصف باقى الحفلات التى تقام للثور المقدس الذى يسمونه أبيس. فعندما ينفق هذا الثور ويودع قبره فى حفل رائع، يبحث الكهنة القائمون على هذا الأمر عن عجل فى جسمه سمات مشابهة لسمات سلفه الراحل. وعندما يقعون على بغيتهم، يرفع عن الشعب الحداد. ويقود الكهنة المختصون العجل إلى نيلوبوليس (مدينة النيل) Nilopolis أولا حيث يعلفونه

أربعين يوما، ثم يودعونه غرفة مذهبة من سفينة حكومية ويزفونه- كأنه إله- إلى معبد هيفايستوس في منف، وفي هذه الأيام الأربعين يسمح للنساء وحدهن برؤيته فيقفن في مواجهته ويرفعن أثوابهن، ويكشفن عن عوراتهن. أما في سائر الأيام فقد حظر عليهن التوجه إلى حضرة هذه الإله.

ويقول البعض إن السبب في تقديس الثور أن روح أوزيريس انتقلت بعد موته إلى الثور، ولذلك مازالت إلى يومنا هذا تنتقل دائما إلى سلامة هذا الثور أثناء تجلي أوزيريس، ويرجع آخرون السبب إلى أنه عندما مات أوزيريس على يد طيفون، جمعت إيزيس أجزاء جسمه في بقرة من الخشب، ملفوفة في قماش من التيل الرفيع، ومن هنا سميت المدينة عندهم بوسيريس[1].

وهناك روايات كثيرة أخرى حول أبيس. ولكني أعتقد أن الأمر يطول بنا لو سردناها كلها.

 إن طقوس المصريين في عبادة الحيوانات غريبة لا يمكن تصديقها، وهي مصدر حيرة كبيرة لمن يبحثون عن أسبابها وأصولها. ولكهنتهم في هذا الأمر عقيدة سرية، أسلفت ذكرها فيما أوردته عن معتقداتهم الدينية، أما سواد المصريين فلهم في عبادتهم أسباب ثلاثة: أما أولها فخرافي محض أليق بسذاجة العصور المتقادمة. فيقولون إن الآلهة التي وجدت منذ البدء كانت قليلة العدد، فغلبها على أمرها مَرَدَة

(١) البقرة في اليونانية «بوس» ولكن بوسيريس معناها مدينة أوزيريس وهناك مواضع كثيرة بهذا الاسم

الأرض بكثـــرة عددهم وبَغْيهم، فاتخذت الآلهة صور بعض الحيوانات، فنجت بهذا الأســلوب من توحشـــهم وبطشـــهم، ولما سيطر الآلهة بعد ذلـك على كل ما فى العالم، قدســوا الحيوانات التــى كانوا قد اتخذوا صورها، وعلموا الإنســان أن يرعاها ببــذخ فى حياتها، ويودعها القبور بعد مماتها، عرفانا منهم بصنيع الحيوانات التى كانت فى البدء ســببا فى سلامتهم، وثانى أســبابهم أن المصريين فى العصور القديمة هزمهم جيرانهم فى مواقع عديدة لانعدام النظام فى جيشهم، ففكروا أن يحملوا أعلامــا على رأس كل فرقــة، وجعلوا هذه الأعلام على صور الحيوانات التى تُعبَدُ الآن، وكان القادة يحملونها مثبتة فى أسنة رماحهم، فعرف كل فرد- بهذه الطريقة- إلى أىّ فرقة ينتمى. ولما كان ما نتج عن ذلك من حسن النظام قد ساعد كثيرا على انتصارهم، فقد ظنوا أن الحيوانات هى الســبب فى إنقاذهــم، وأرادوا أن يعرفوا لها هذا الصنيع، فســنوا ســنة ألا يقتلوا واحدا من الحيوانات التــى اتخذوا صورتها يومئذ، بل يعبدونها ويولونها ما وصفنا من رعاية وتعظيم.

٨٧ وثالــث ما يأتون به من أســباب تقديس الحيوانات، هو ما يؤديــه كل نــوع من خدمات فى ســبيلٍ المجتمع الإنســانى من ناحية والإنسان من ناحية أخرى، فالبقرة- مثلا- تلد الثيران التى تفلح الأرض وهى نفســها تحرث الأرض الرخوة، أما الأغنام فتلد مرتين فى السنة، وتهيئ لنا بأصوافها أســباب الوقاية والزينة، وتعد لنا بألبانها وجبنها

طعاما شــهيا وفرا. أما الكلب فمفيد فى الصيد وفى حراســة الإنســان، ولذلــك يصور المصريون الإله الذى يســمونه أنوبيس على هيئة إنســان لــه رأس كلب إشــارة إلى أنه حارس أتباع أوزيريــس وإيزيس، ويقول البعض إن الكلاب قادت إيزيس فى بحثها عن جثة أوزيريس، وذادت عنها الحيوانات المفترســة وعابرى الســبيل، وساهمت- برّا بها- فى البحــث عن جثة أوزيريس نابحة طــوال الوقت، ومن هنا جرت العادة بأن يتقدم الكلاب الموكب فىعيد إيزيس، فهذا شــاهدٌ يأتى به واضعو هذه الســنّة على المنّة التى أســداها الحيوان فى قديم الزمان، وللقطط اســتعداد خاص لإبادة الناشــر القتّال وغيره من الزواحف الســامة، أما النمس فيترصد للتماســيح حتى تضع بيضها فيهشــمه، وهو يقوم بهذا العمــل بعنايــة واهتمام دون أن يكــون له أية فائدة مــن ورائه، ولو لم يكــن هذا دأبه لأصبــح النهر غير صالح للملاحة لكثرة ما يفقس فيه من التماســيح. ويقتل النمس أيضا التماســيح نفسها بطريقة غريبة لا يمكن تصورها. فعندما يرقد التمســاح على شط النهر فاغرا فاه، يتمرغ النمس فى الوحل ويقفز من فم التمســاح إلى جوفه، ثم ينهش أحشاءه بسرعة وينفذ إلى الخارج ســالما، تاركا التمساح جثة هامدة فى الحال. أما فى الطيــر فأبو منجل يفيد فى إبادة الحيات والجراد واليرقات، والصقور، تفيد فى إبادة العقارب والحيات المقرّنات والحشــرات الصغيرة السامة الشديدة الفتك بالإنسان.

ويقـول البعـض إن تقديـس الصقـور يرجـع إلـى أن العرّافين يسـتخدمونها فى التنبؤ للمصريين بالغيب، بينمـا يقول البعض الآخر إنــه فى العصــور المتقادمة حمل الصقر للكهنة فــى طيبة كتابا مربوطا بخيط يشتمل على طقوس خدمة الآلهة وعبادتها، ومن هنا كان الكهنة المقدســون يضعون خيطا أحمر وريشــة صقر فوق رءوسهم، ويقدس أهل طيبة النسر ويعتبرونه طيرا ملكيا جديرا بزيوس.

ويؤلــه المصريــون الجدى كما يقدّس اليونــان بريابوس[1] Priapus من أجل ذَكرِه فيما يقال، لأن الجدى شــديد الميل للجماع، ويلقى ذكره ما هو أهل له من تعظيم، ذلك بأنه الســبب الرئيســى فى إنجــاب مملكة الحيــوان، وبالجملة، فليس ذلك وقفــا على المصريين وحدهم، فشعوب غير قليلة أخرى تقدس الذكر فى طقوسها، ذلك بأنه السبب فى ظهور الكائنات الحية.

والكهنــة الذين يخلفون آباءهم علــى الوظائف الكهنوتية يدخلون بادئ ذى بدء فى دين هذا الإله، ولهذا السبب عبد الناس- فيما يقال- بأن[2] pan والساتير[3] satyri، ولذلك تقام لها فى المعابد غالبا تماثيل منتصبة الذكر قريبة من هيئة الجدى، لأن المشهور عن هذا الحيوان أنه بالغ الشــهوة للجماع، فالمصريون بتصويرهم هذه الآلهة على هذا النحو

(١) بريابوس: إله القوى الطبيعية المخصبة فى الإنسان والحيوان والنبات، وكان اليونانيون يصورونه فى هيئة جدى.

(٢) إله الماشية والرعاة عند اليونانيين ويمثلونه فى هيئة رجل له قرنان ورجلا جدى

(٣) يختلف الساتير عن البان فى أنه لا قرون له

يقدمون الشكر على كثرة نسلهم، وهم يعبدون الثيران المقدسة وأعنى هنا أبيس ومنيفيس، كآلهة كما أمر أوزيريس لسببين: فائدتها للزراعة، ولأن شهرة الوقوع على الحروث تنتقل بفضل مجهوداتها من السلف إلى الخلف على طول الزمان.

ولقد كانت التضحية بالثيران الضاربة إلى الحمرة جائزة لما يعتقدون من أن طيفون الذى تآمر ضد أوزيريس ولاقى جزاءه على يد إيزيس لقتله زوجها، كان لونه ضاربا إلى الحمرة، ويقال إن الملوك فى العصر القديم كانوا يضحون على قبر أوزيريس بمن كان على لون طيفون من الرجال[1] وقليل من المصريين من يضرب لونهم إلى الحمرة، أما أكثر الأجانب فعلى هذا اللون، ولذلك شاعت بين اليونانيين قصة قتل بوسيريس للأجانب. ولكن لفظ بوسيريس ليس علما على ملك.. بل هو لفظ يطلق على أوزيريس الذى كان يسمّى بوسيريس فى لغة أهل البلاد.

ويقال إن الذئاب قدِّست لشدة شبهها بالكلاب، فالذئب والكلب يختلفان اختلافا يسيرا فى الطبائع ويلدان بالتزاوج فيما بينهما. وللمصريين فى تقديس هذا الحيوان سبب آخر ولكنه خرافيّ، فهم يقولون إنه فى العصر القديم، لما أزمعت إيزيس مع ابنها حورس أن تناهض طيفون، حدث أن انبعث أوزيريس من العالم السفلى فى صورة ذئب ليساعد ابنه وزوجه، فلما قتل طيفون أشار هازموه يتقديس الحيوان الذى استتبع ظهورُ وجهه النصر، ويذهب البعض إلى أنه لما

(١) أنكر هيرودوت ٢، ٤٥ أمر تضحية المصريين بالرجال، ولعله لم يشاهدها أثناء إقامته، ولكن نحر الأسرى للآلهة مصور فى آثار الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة

سـار الأحباش بجيش إلى مصر تألفت رعالٌ كبيرة من الذئاب وتعقبت الغزاة إلى خارج البلاد فيما يلى المدينة التى تسمى إلفنتين ولذلك سمى هذا الإقليم «إقليم الذئاب» وأولوا هذا الحيوان ما ذكرنا من تقديس.

٨٩ بقـى علينا أن نتحدث عن تقديس التماسـيح، فقد حار أكثر الكتاب فى أمر هذه العبادة. فهذه الضوارى تفترس الإنسـان، فكيف يسنّ القانـون عبادتها وهى توقع هذه الأضرار الشـنعاء؟.. ويرد المصريون على ذلـك بأن النيل وحده لا يؤمن سـلامة البلاد، بـل يؤمنها أكثر من النيل ببعيـد ما فيه من تماسـيح. وهكـذا لم يجرؤ قراصنة بـلاد العرب وليبيا علىعبور النيل خوفا من ضواريه الكثيرة، وما كان هذا ليحدث لو شُـنّت الحرب على التماسـيح وأبيدت عن آخرها بما ينصبه الصيادون من شباك فى النهر، وثمة رواية أخرى تحاك حول هذه الحيوانات، إذ يزعم البعض أن أحد الملوك القدماء المسـمى مينا تعقبته كلابه الخاصة، فاحتمى منها فى البحيرة التى تسـمى موريس وهناك انتشـله تمساح بطريقة عجيبة، وحمله عَبر البحيرة إلى الضفة المقابلة، وأراد الملك أن يعرف للحيوانات صنيعـه فى إنقاذه. فأنشـأ مدينة فى المنطقة المجاورة للبحيرة وسـمّاها كروكوديلـو بوليـس (مدينة التماسـيح) وأوصى أهلِ البـلاد بتقديس هذه الحيوانـات كآلهة. ووقف البحيرة على إطعامها وشـيد هناك كذلك قبرا لنفسه على شـكل هرم ذى أربعة أضلاع، وابتنى أيضا قصر التيه[1] الذى نال إعجاب الجميع، ويقص المصريون روايات أخرى مثل هذه فيما يتعلق بسائر عباداتهم،ولكن الأمر سيطول بنا إذا سردناها واحدة فواحدة.

(١) ذكر فى الفصل ٦١ أن بانى قصر التيه هو منديس

أما أن المصلحة العامةكانت رائدهم فيما التزموا من عادات فأمر جليّ للكافة من امتناع بعضهم من تعاطى كثير من المأكولات التى تنتج فى إقليمهم، فقد كان بعضهم يمتنع بتاتا من تذوق العدس أو الفول أو الجبن أو البصل أو غيرها من أنواع المأكولات بالرغم من أنها كلها متوفرة فى مصر، وبذلك يتضح لنا أن الناس يجب أن يتعلموا كيف يحرمون أنفسهم بعض المأكولات المفيدة، لأنه إذا تعاطى الجميع كافة أصناف المأكولات فلن يفى صنف واحدٌ من المستهلكات بحاجتهم، ويدلى بعض الناس بأسباب غير التى ذكرنا فيزعمون أنه فى عهد الملوك الأقدمين كثيرا ما ثار الشعب وتآمر بحكامه. فقسَّم أحدُ الملوك– وكان فذ الذكاء– البلاد إلى أقاليم متعددة، وأوحى إلى سكان كل إقليم على حده أن يصيدوا حيوانا خاصا، أو يمتنعوا من تذوق مأكل بعينه، حتى لا يستطيع المصريون أبدا أن يتحدوا معا. فقد كانت كل فئة منهم تعظم معبودها وتزدرى ما يقدسه الآخرون، وتتبين أغراض هذا الملك من نتجائها. ذلك أن كل الذين يعيشون فى أقاليم متجاورة على اختلاف شديد فيما بينهم، وقد أحفظهم التعدى على ما ذكرنا من عاداتهم.

٩٠ ويدلى البعض بسبب آخر لعبادة الحيوانات فيقولون إنه فى البدء لما أقلع الناس عن حياة التوحش، وعاشوا فى جماعات، كانوا يأكلون بعضهم بعضا، ويقتتلون وكانت الغلبةدائما للأقوى على الأضعف، ثم جمع الذين أعوزتهم القوة شملهم بدافع من مصلحتهم الخاصة، واتخذوا لهم شعارا هو أحد الحيوانات التى قدِّست فيما بعد، والتفت الفئة المستضعفة حول هذا الشعار،وكوّنت كتلة يتعذر

على المتطاولين امتهانها ولما انتهج الآخرون أيضا هذه الخطة نفسها، انقسم الشعب إلى جماعات، وأصاب الحيوانُ الذىكان سبب سلامة كل جماعة من هذه الجماعات تقديسا إلهيا لما أسداه إليها من جزيل النعم. ولذلك تصيد كل جماعة من الجماعات المختلفة فى مصر إلى يومنا هذا الحيوان الذى قدّس عندها منذ البدء. وبالجملة فالقول بأن المصريين أكثر الناس قاطبة استعدادا للاضطلاع بزمام أى عارفة، وهم يعتقدون أن عرفان الصنيع لفاعليه ملاذ الحياة الأكبر. ذلك بأنه من الجلىّ أن الناس كلهم سيحرصون خاصةعلى بذل الصنيعة لأكثر من يرون من الناس حفاظا للمعروف.

ويبدو أن هذه هى الأسباب نفسها التى يخشع المصريون من أجلها لملوكهم ويتعبدون لهم كأنهم آلهة حقا، معتقدين أنه لولا العناية الآلهية ما أوتى الملوك السلطان على كل شىء، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى رأوا أن الذين يريدون الخير ويستطيعون تأديته لهم نصيب من الطبيعة الإلهية. وبعد فإذا كنت قد أفضت فى الحديث عن الحيوانات المقدسة فى مصر، فقد بحثت على أى حال بالتفصيل أعجب ما أثار دهشة الناس من الشعائر فى مصر.

٩١ وإن من يطلع على شعائر المصريين الجنائزية يعجب أشد العجب لغرابة عاداتهم فيها، فعندما يموت أحدهم يلطخ جميع معارفه وأصدقائه رءوسهم بالطين ويطوّفون بالمدينة نادبين إلى أن توارى رفاته فى القبر، ويمتنعون من الاستحمام وتعاطى النبيذ أو أى غذاء لذيذ، ولا يلبسون أى رداء زاهى اللون، وهناك ثلاث مراتب للدفن: الأولى

باهظة التكاليف، والثانية متوسطة، والثالثة متواضعة جدا. والمقول إن تكاليف المرتبة الأولى طالنط من الفضة وتكاليف الثانية عشرون منا وتكاليف الثالثة مبلغ زهيد جدا.

والآن فالذين يقومون على أمر الجثث- وهم صناع ورثوا مهارتهم عن جدودهم- يعرضون على أهل المتوفى قائمة بتكاليف كل مرتبة من مراتب الدفن. ويسألونهم عن الطريقة التي يريدون أن يهيئوا الجثة عليها، وبعد أن يتفقوا على جميع التفاصيل، ويتسلموا الجثة يعهدون بها إلى طائفة اختصت بهذا الأمر وفق التقاليد المرعية. فيضع من يقال له «الكاتب» الجثة أولا على الأرض. ويحدد على العطف الأيسر المقدار الواجب شجه، وبعد ذلك يأخذ من يسمونه (الجرّاح) حجرا حبشيا ويشج اللحم طبقا للأصول المرعية، ثم يولي الأدبار في التو مسرعا. فيقتفي الحاضرون أثره ويقذفونه بالأحجار ويلعنونه كأنهم يلصقون الجرم به، فقد كانوا يعتقدون أن اللعنة تحل بكل من يحمل بالقوة على جثة واحد من أفراد قومه إما بجرحها أو على العموم بإدخال أي عطب عليها.

أما الذين يسمونهم «المحنطين» فهم أهلٌ لكل تعظيم وتقدير، ويختلطون بالكهنة، ويباح لهم بصفتهم مُطَهَّرين الدخول في المعابد، وعندما يجتمعون لتجهيز الجثة التي سبق شجها، يدخل أحدهم يده في الشج إلى الجوف ويخرج كل ما فيه ما عدا الكليتين والقلب، بينما ينظف آخرٌ الأحشاء واحدة فواحدة بغسلها بخمر البلح ومحلول التوابل، وبالجملة فكل الجسم يجهز أولا بزيت الأرز وبعض

المســتحضرات الأخــرى مدة تزيــد على ثلاثين يوما، ثــم يجهز بالمر والقرفــة وموادٍّ من خاصتهــا أن تحفظ الجثة وقتا طويلا، وتضفى عليها النضــارة أيضا، وعندما يتم تجهيز الجثة يســلمونها إلى أهل المتوفى، وقد أبقوا على كل عضوٍ من أعضاء الجسم حتى إن الأهداب والحواجب تظــل كما كانت ولا تتغير هيئة الجســم مطلقا، بــل يمكن التعرف إلى ملامــح شــكله، ولذلك يحتفظ كثيرٌ من المصرييــن بجثث أجدادهم فى غرف فخمــة، فينظرون وجها لوجه إلى أســلافهم الذين قضوا نحبهم قبل أن يولدوا هم أنفســهم بأجيال عديدة، وهكذا عندما يرون جرم كل منهم وتفصيل جسمه، وقسمات وجهه يستشعرون إحساسا غريبا كما لو كانوا قد عاشوا مع الذين يتطلعون إليهم.

٩٧ وعندمــا تجهــز الجثة للدفن يخطرُ أهل الميت القضاة وأقرباء المتوفى وأصدقاءه أيضا بيوم الجنازة، ويعلنون للملأ أنه– وهنا يذكرون اسم المتوفى– على وشــك عبور البحيرة، ثم يجتمع اثنان وأربعون من القضاة ويأخذون مجلسهم فى بناء نصف دائرى فى الجانب البعيد من البحيرة، ويُطلَقَ فى الماء القارب «بارس»[1] الذى أعده من قبل الذين يضطلعون بهذه الأمور، ويكون القارب تحت إمرة الملاح الذى يسميه المصريون فى لغتهم خــارون[2]، ولذلك يدّعِي المصريــون أن إورفيوس أبحر إلىمصر فى الزمن القديم، وشاهد هذه السنة فزور الأسطورة الدائرة حول العالم السفلى، ناقلا بعضها مما شاهد ومختلقا البعض الآخر من ذات نفسه.

(١) الكلمة مصرية قديمة بمعنى قارب أو زورق وقد دخلت فى اللغة اليونانية

(٢) هذه هى التسمية اليونانية، وقد أخذها الرومان ولم يكن «خارون» معروفا لدى المصريين، وإنما يقابله فى الأساطير المصرية «الرجل الذى ينظر إلى الوراء»

وســأتحدث عن هذه المســألة بالتفصيل فيما بعد، وعلى أى حال فبعـد أن يطلق القارب فــى البحيرة، ولكن قبل أن يوضع فوقها النعش الــذى يضم رفات الميت، يخوّل القانون لمن شــاء حق اتهام المتوفى، فإذا تقدم أحدٌ بتهمة أثبت بها أن المتوفى كان يحيا حياة ضالة، أصدر القضــاة حكمهم علانية فيحرم الميت حــق الدفن المتواضع عليه، وإذا ظهر أن المدعى اتهم المتوفى بغير وجه حق، وقع المدعى تحت طائلة عقوبــات كبيرة، وإذا لــم يتقدم أحدٌ بتهمــة، أو إذا تقدم واحد بتهمة وثبت أنــه متجنّ، ينتهى أهل الميت من حدادهــم، ويؤبّنون الميت، وهــم على عكس اليونان، لا يذكرون شــيئا عن مولد المتوفى، معتقدين أن المصريين كلهم ســواء فى شــرف المحتد، ولكنهــم يذكرون تربيته وتعليمه منذ طفولته، ويثنون على تقواه وعدله وضبط نفسه وسائر فضائله عندما بلغ مبلغ الرجال، ثم يدعون آلهة العالم الســفلى أن تحشــره فى زمرة الأتقياء، أما الجمهور فيهلل مؤمِّنا ويشــيد بعظمة المتوفى بصفته واحدا من أولئك الذين سيخلدون إلى الأبد فى العالم السفلى فى صحبة الأتقياء.

والذيــن يملكون مرافق خاصة يضعون الجثــة فى مكانها المعين، أما الذين لا مرافق لهم فيبتنون سقيفة جديدة فى خاصة بيتهم ويضعون النعش فيها منتصبا مستندا إلى أمتن حيطانها، أما الذين حرموا مراسم الدفن إما لأن تهما قد ثبتت عليهم، أو لأن أجسامهم كانت رهينة ديون لــم يؤدوهــا، فيدفنون فى خواص بيوتهم، ويحــدث أحيانا أن يُصيبَ

أحفادهم ثروة، فيوفون بالتزامات موتاهم، ويبرؤونهم من التهم المحمولة عليهم، ويقيمون لهم جنازة فخمة.

٩٣ وأقـدس الواجبات المرعية عند المصريين أن يُروا وقد أولوا آباءهم وأجدادهم من التقديس بعد انتقالهم إلى منازلهم الأبدية أكثر مما كانوا يولونهم وهم في قيد الحياة. ومن عاداتهم أن يقدِّموا جثث آبائهم الراحليـن رهنا لدين، ويلاحق العـار الأكبر الذين لا يوفون هذا الدين، فيحرمون مراسم الدفن بعد موتهم.

ولنـا أن نعجـب بحق بالذين سـنوا هـذه التقاليـد، ذلك بأنهم اجتهـدوا أن يُشـربوا الناس البـر ونبل الأخلاق لا عـن طريق صلات الأحياء فحسـب.. بل وبقدر ما وسـعت طاقتهم عن طريق دفن الموتى وتجهيزهـم، فاليونانيون قد لجأوا إلى الخرافـات الموضوعة والقصص المجرحـة لتدعيم الاعتقاد بأن التقى سـيلاقى ثوابه، والشـقى عقابه، ومهما يكن من شيء، فإن هذه الأساطير، لم يكن لها من القوة ما يمكنها من صرف الناس إلى الحياة الفاضلة، بل بالعكس كانت موضوع سخرية الأشرار، وقوبلت بالزراية التامة، بينما المسألة عند المصريين لا تدخل في باب الخرافة، بل هي حقيقة سافرة أن الشقى يلاقى عقابه، والتقى ثوابه، وكلاهما يذكر يوميًا بواجباته، وهكذا نحصل على أحسـن وأفيد تقويم للأخلاق، وعندى أن أحسـن القوانين ليسـت التي يصبح الناس بفضلها أغنياء جدا.. بل هي القوانين التي يصبحون بفضلها أنبل الناس أخلاقا وأكثر المواطنين ولاء.

٩٤ وينبغــي أن نتحدث كذلك عن المشــرعين المصريين الذين سنوا هذه التقاليد المبتكرة الغريبة. فيحكى أنه بعد أن توطدت الحياة في مصر في العصر القديم، وقد اســتقرت فــي رواية البعض في عصر الآلهة والأبطال، كان منيفيس[١] أول من أقنع الشعب بالامتثال لقوانين مكتوبــة، وقــد كان في ذاته رجلا عظيما، وفي حياته أكثر من نشــيد بذكرهــم أريحية، فادعى أن هرمــس أوحى إليه بهذه القوانين، لتكون مصــدر نِعم عظيمــة، تماما كما كان الأمر عند اليونــان فيما يقال، إذا ادعّى مينوس في أقريطش وليكرجوس[٢] بين الأسبرطيين أنهما قد تلقيا قوانينهــم، أولهما تلقاها من زيوس، وثانيهما من أبوللو، ويؤثر أن هذا الضرب من الحيلة قد جاز على شــعوب كثيرة غيرها وكان مصدر أنعم كثيــرة للذين آمنوا، ويحكى أن زاثراوســتيس[٣] ادعى بين الآريين أن الــروح الخيّرة حبته بالقوانين، وكذلك عزاها زالموكســيس zalmoxis عند الأقوام المســماة بالجتيين[٤] Getar إلى الإهتهم المشتركة هيستيا Hdstia وعند اليهود عزاها موسى إلى الإله الذى يدعونه إياو، وهؤلاء، إما أنهم قدّروا أن الفكرة التى يكون من شأنها أن تفيد جمهرة الناس، فكرة رائعة والإهية تماما، وإما أنهم رأوا أن الشعب يكون أكثر خضوعا

(١) هو فيما يظهر مينا الذى ورد ذكره فى الفصل ٤٣، ٤٥

(٢) هو مشروع إسبرطة الأكبر، وقد أعاد بتشريعاته توزيع الثروة فى إسبرطة ووضع لها نظامها الحربى والمدنى، والمرجح أن ذلك كان حوالى سنة ٨٢٥ ق.م.

(٣) زرادشت

(٤) يسكنون جنوب نهر الطونة، وظهر بينهم زالموكسيس وبشرهم بخلود الروح

للقوانيــن لو اتجه ببصــره صوب عظمة وقوة الذيــن يُعزى إليهم وضع هذه القوانين. ويقول المصريون إن ثاني المشـرعين هو ساســوخيس[1] sasychis وهــو رجــل يمتاز برجاحة العقل، وقد أضــاف إلى القوانين القائمة قوانين جديدة، ونظم شـعائر الآلهــة بحرص فائق، ووضع علم الهندســة، وعلم أهل البلاد مراقبة النجوم، ورصدها. وثالث مشرعيهم فيما يقولون سيسوسـيس sesoosis[2] ولم يكتف بالقيام بأبهر الأعمال الحربيــة المصرية، بل ســنَّ تشــريع الطبقة المحاربــة، ووضع كل ما يتبــع ذلك من أصول الحمــلات الحربية، ورابع المشــرعين هو الملك بوخوريس[3] وكان عاقلا امتاز بدهائه، فنظم جمع شــئون الملك وشــرع بالتفصيل أصول المعاملات الخاصة، وقد كان حكيما في قضائه إلى حد أن كثيرا من أحكامه مازال لفرط سداده مأثورا إلى يومنا هذا، ويضيفون إلى ذلك أنه كان أضعف الناس بِنْيةً وأجشع الملوك قاطبة نفسا.

٩٥ وبعــد بوخوريس صرف الملــك أمازيس همّته فيما يقال إلى القانون، فهــو الذي نظم فيما يزعمون أصــول حكومة الأقاليم، وقواعد الإدارة المصرية عامة، والمأثور أنه كان بالغ الحكمة رحيم الطبع عادلا.

وقد اجتبــاه المصريون للملك من أجل هــذه الصفات برغم أنه لم ينحــدر من أصل ملكي، ويحكى أن الإلياثيين وكانوا شــديدي الاهتمام بالمباريات الأوليمبية، أرسلوا وفدا يسأله كيف يمكن أن تكون المباريات

(١) يرى البعض أنه الفرعون شيب- سيس- كاف من الأسرة الرابعة

(٢) مذكور في الفصل ٤٥، ٦٥، ٧٩

(٣) راجع الفصل ٥٣ وما بعده

علـــى غاية من النزاهة؟ فأجاب «إذا لم يشـــترك في المباريات أحد من الإليائيين[1]».

وبالرغم من أن بوليقراطيس[2] Polycrates طاغية ساموس كان قد عقد معه معاهدة صداقة، إلا إنه حينما أخذ يســوم المواطنين والأجانب الذين نزلوا بســاموس العَسْفَ، أرســل إليه أمازيس أولا فيما يقال وفدا يدعـــوه إلى الترفق، ولما لم يعره بوليقراطيس التفاتا، كتب إليه رســالة يقطع فيها ما بينهما من صلات الصداقة والمودة، ذلك أنه لم يُرد لنفسه الســوء وشــيكا. فقد كان يعلم علم اليقين أن المصيبة لا تلبث أن تحيق بمــن يقيم مثل هذا الحكم الاســتبدادى. ويقال إنه نال إعجاب اليونان لنبله ولأن ما أنذر به بوليقراطيس تحقق عاجلا، ويقال إن دارا أبا إجزر كســيس كان ســادس من تفقهوا في القوانين المصرية، فقد أسخطه ما استهدفت له المعابد المصرية على يد سلفه الملك قمبيز من عبث، وكان شديد الرغبة في أن يحيا حياة فاضلة تقية، فصحب الكهنة المصريين أنفسهم وأخذ عنهم علم الكلام والتاريخ المثبت في الكتب المقدسة، ولما تعلمنها ســمو نفس الملوك القدماء، وبرّهــم برعيتهم، احتذى حذوهم، وهكــذا أصاب من التكريم قدرا عظيما إلى حــد أنه الوحيد بين الملوك جميعــا الذى أطلق عليه المصريون لقب إله وهــو في قيد الحياة، ولما قضى نحبه، كان نصيبه من التكريم مثل نصيب الملوك الأقدمين الذين حكموا طبقا لنصوص القانون.

(١) ذكر هيردوت٢، ١٦٠ هذه القصة بالتفصيل ولكنه عزاها إلى الملك بساميس

(٢) من أشد طغاة اليونان بطشا، وكان من رعاة الأدب والعلم، وقتل غيلة سنة ٥٢٢ ق.م

هؤلاء الرجال إذن اشتركوا فيما يقال في وضع التشريع العام الذى اكتسب صيتا ذائعا بين سائر الشعوب. ويقال إن كثيرا من هذه القوانين التى كانـت صالحة فى رأى الكافة قد تغيّرت عندما انتصر المقدونيون وقضوا على الحكومة الملكية الوطنية إلى الأبد.

٩٦ والآن.. بعد أن فصلنا هذه المسـائل، يجب أن نتحدث عـن أولئك اليونانيين الذين زاروا مصر فى العصور القديمة ليدرسـوا مـا فيها من نظم وعلوم، يقـول الكهنة المصريون- معتمدين فى ذلك على ما ورد فى الكتب المقدسـة- إن أورفيوس[١] وموسى وميلامبوس Melampus [٢]وديدالوس[٣] والشاعر هوميروس وليكرجوس الإسبرطى وصولون الآثينى. والفيلسـوف أفلاطون زاروا مصر فى العصر القديم. ويزعمـون أن العالم الرياضى يودكـوس[٤] Eudoxus وديموقريطس[٥] الأبـدرى وأينوبيدس[٦] Oenopides الحيوى قـد جاءوا إليها أيضا والأدلة التى يسـوقونها على صحة هذه الدعـاوى كلها هى التماثيل التى أقيمت لبعض هؤلاء اليونانيين، والبقاع والمنشـآت التى سميت بأسـماء البعض الآخر[٧]، والعلـوم التى صرف كل منهم إليها همته،

(١) شخصية خرافية، كان اليونانيون يعتقدون أنه أشهر الشعراء قبل هوميروس
(٢) كان اليونانيون يعتقدون أنه أول من أدخل عبادة ديونيسـوس عندهم
(٣) شخصية خرافية، اعتقد اليونانيون أنه أدخل فنون النحت والعمارة في أثينا وكريت
(٤) جغرافي ورياضي من تلاميذ أفلاطون، والشواهد كثيرة على زيارته لمصر
(٥) راجع فصل ٣٩
(٦) راجع فصل ٤١
(٧) جاء في إسترابون ١٧، ١ أن البيت الذى نزل فيه أفلاطون ويودكسوس كان قائما في هيلوبوليس

زاعمين أن كل ما نالوا الإعجاب من أجله عند اليونانيين كان منقولا من مصر، ويقولـون إن أورفيوس نقل من مصر أكثر الطقوس الباطنية والشعائر السرية المتعلقة بسياحته، وأساطير العالم السفلى، ذلك بأن شعائر أوزيريس هى بعينها شعائر ديونيسوس، كما أن شعائر إيزيس قريبة الشـبه جدا بشـعائر ديميتير مع اختلاف فى الأسماء وحدها، فعقاب الأشرار فى العالم السفلى، وجنات الأتقياء وما ينسجه الخيال من ترهات يؤمن بها الكثيرون، مسـتقاة من الشـعائر الجنائزية فى مصر، ذلك أن رائد الأرواح هرمس يسـوق- طبقـا للطقوس المصرية القديمة- جسم إبيس إلى مكان ما ويسلمه للذى يلبس قناع كربيروس Cerberus وثبّـت أورفيـوس هـذا التقليـد بين اليونانييـن وتابعه هوميروس وقال فى شعره:

«وابتعث هرمس الكلينـى أرواح الخطّاب وقد قبض بيديه على عصاه السحرية» ثم عاد بعد أبيات قليلة فقال[1]

قد عبروا أمواه المحيط

وصخره الضوء اللماع

جاوزوا أبواب الشمس ومنطقة الأحلام

وها قد بلغوا بغتة رياض الشقائق

حيث تسكن الأوراح وأشباح الموتى

(١) الأوديسية ١٠٢٤ - ٢ و١١ - ١٤

وهكذا يسمى الشاعر النهر، «المحيط»[1] لأن المصريين يطلقون على النيل هذا الاسم في لغتهم. أما أبواب الشمس (هليوس) فهي أبواب مدينة هليوبوليس، والرياض- مساكن الموتى الخرافية- هي المروج القريبة من البحيرة التي يقال لها أخيروسيا بالقرب من منف، وتكتنفها المروج البالغة الجمال والمستنقعات ونبات البردى والغاب، ومن هنا قيل إن مساكن الراحلين تقع في هذه البقاع لأن أكثر مدافن المصريين وأعظمها قائم هناك، فينقل الموتى عبر النهر وبحيرة أخيروسيا وتلحد جثثهم هناك حيث توجد مقابرها.

وتتفق أساطير اليونان الأخرى حول العالم السفليّ مع التقاليد التي لا تزال قائمة فيمصر، ذلك بأن السفينة التي تحمل جثث الموتى تسمى بارس، ويُنقدُ الجعل للسفّان الذي يدعى فيلغة أهل البلاد خارون، ويقولون إنه يقع بالقرب من هذه المنطقة معبد هيكاتس إلهة الظلام ومنافذ كوكيتوس[2]، وليتي[3] وتتخللها قضبان من البرنز، وهناك أيضا بوابات أخرى «للحق» وبالقرب منها يقوم تمثال بلا رأس «للعدالة».

٩٧ ولا يزال كثيرٌ غير هذه من الخرافات سائدا في مصر، وما انفكت الأسماء فيها باقية، والطقوس لا تزال معمولا بها، ففي مدينة أكانثوس فيها وراء النهر في الناحية اللوبية، وتبعد مائة وعشرين ستادا عن منف، توجد جرة مثقوبة يحمل إليها الماء من النيل كل يوم

(١) الواقع أن هوميروس لا يعرف النيل إلا باسم إيجبتوس

(٢) نهر الأحزان المتصل بالعالم السفلي.

(٣) نهر النسيان المتصل بالعالم السفلي

ثلثمائة وستين كاهنا[1]، وبالقرب من هذه الناحية نرى خرافة أكنوس[2] لا تزال تقام بالتمام فى أحد الأعياد، حيث يضفر أحدهم حبلا طويلا، بينما يحل كثيرون من ورائهما ضفر، ويقولون إن ميلامبوس نقل من مصر الطقوس التىتواضع اليونان على إقامتها لديونيسوس، والخرافات الدائرة حول كرونوس، وقصص الحروب ضد المردة، وبالجملة حكاية كل ما عاناه الآلهة، ويدعى المصريون أن ديدالوس قلد دروب التيه المصرى الذى لا يزال باقيا إلى وقتنا الحاضر، وقد ابتناه على قول البعض منديس وعلى قول آخر ماروس[3]، وقد تولى الحكم قبل الملك ميونس Minos بسنين عديدة، ونسَبُ التماثيل المصرية القديمة هى نفس نسب التماثيل التى أقامها ديدالوس عند اليونانيين، ويقال إن البوابة الخارجية فى معبد هيفايستوس فى منف، وهى جميلة جدا، أنشأها ديدالوس، وأعجب به المصريون وأقاموا له تمثالا خشبيا فى المعبد المذكور كان من صنع يديه هو نفسه، وأخيرا فقد اكسبته عبقريته شهرة عظيمة، وبعد أن قام باكتشافات كثيرة حظى بالتقديس الإلهى، ويوجد إلى الآن معبد لديدالوس فى إحدى الجزائر بالقرب من منف ويقدسه فيها الشعب.

(١) إشارة إلى بنات دناؤس الخمسين اللائى كتب عليهن بعد الموت أن يملأن جرات لا قعر لها.

(٢) فى الأساطير اليونانية أن أكنوس فى العالم السفلى كتب عليه أن يضفر حبلا ووراءه حمار يأكل ما يضفر

(٣) راجع فصل ٦١

ويُقــدّم المصريون أدلةً كثيــرة على زيارة هوميروس لمصر وأخصها الــدواء الــذى أعطته هيلينــة لتيليما خوس فى بيــت مينيلاوس، وما جلب له من نســيان الشــرور التى أصابته، وهذا هــو دواء النينثيس[1] Nepenthes الــذى يقول الشــاعر إن هيلينة قد أخذتــه من بوليدامنه زوج ثــون فى مدينة طيبــة المصرية، ومن الجلّى أنــه فحصه جيدا، وهم يدّعون أن النســاء فى تلك المدينة يســتعملون إلى الآن هذا الدواء الناجع، ويقولون إنه اكتُشــف منذ الزمن القديم دواء لشفاء الغيظ والألم بين نساء ديوســبوليس وحدهن، وميدنة ديوسبوليس هى نفسها مدينة طيبة، وهكــذا ينعت الأهالى أفروديت بلقب «الذهبية» فى الأســاطير القديمة، ويوجد حول المدينة التى يســمونها مومفيس ســهل يقال له (أفروديت الذهبية) ويقال إن هوميروس نقل من مصر أســطورة معاشرة زيوس لهيرا ورحلته إلى الحبشة، وفى كل عام ينقل المصريون مقصورة زيــوس عبر النهر إلى لوبيا، وبعد بضعة أيام يرجعونها بالتالى كما لو أن الإله قد قفل راجعا من الحبشة، أما عن معاشرة هذين الإلهين فإن مقصورتيهما تنقلان فى الأعياد إلى تل قد فرشــه الكهنة بجميع أنواع الزهور[2].

---

(١) معناها مسكن الآلام، والإشارة إلى قول هوميروس فى الأوديسية ٤، ٢٢٠، ومن ثم سكبت فى الخمر الذى كانوا يشربون منه دواء مسكنا للآلام، ومنسيا لجميع الأحزان

(٢) يشير ديودور إلى قول هوميروس فى الإلياذة ٢، ٣٤٦ – ٨ «أما ابن كرونوس فضم خليلته بين ذراعيه، وأخرجت الأرض الطيبة تحت أقدامها حشائش ناضرة غضة وبشنين نديا، وزعفران وعيسلان رخصا سميكا».

٩٨ ولقد اقتبس ليكرجوس وأفلاطون وصولون كثيرا من السنن المصرية في شرائعهم وتعلم فيثاغوراس من المصريين علم الكلام ونظريات المساحة والحساب، وحلول الروح في أنواع الحيوانات المختلفة، ويعتقد المصريون أن ديموقريطس قضى بينهم خمس سنوات تعلم فيها كثيرا من مسائل علم الهيئة، وتعلم أونوبيديس فيما تعلم بملازمة الكهنة وعلماء الهيئة أن الشمس تدور في شكل إهليلجي في اتجاه مضاد لسائر الكواكب، وكذلك بعد أن درس يودكسوس عند المصريين علم الفلك نقل كثيرا من العلوم المفيدة إلى اليونانيين وأصاب عندهم شهرة عظيمة.

ولقد زار مصر أشهر المثالين القدماء تليكليس وثيودوروس ولدا رويكوس اللذان نحتا لأهل ساموس التمثال الخشبي لأبوللو البيثيني، وشاع القول بأنتليكليس أنجز نصف التمثال في ساموس، في حين أنجز أخوه ثيودوروس النصف الثاني في إفسوس ولما وضع النصفان بجانب بعضهما التأما إلى حدّ أنه كان يبدو كأن الأثر الفني كله كان من صنع رجل واحد، وهذا الأسلوب في الصناعة لم يصطنعه اليونان أبدا، في حين أن المصريين عاكفون عليه على وجه التخصيص، ذلك أن المصريين لا يحكمون على تناسب التمثال بما يقع تحت أعينهم من منظور كما هو الحال عند اليونانيين.. بل إنهم بعد أن يصففوا الحجر، ويقسموه ويبدأوا العمل فيه، حينئذ يأخذون النسب والأبعاد صغيرها وكبيرها على حدٍ سواء، وهم يقسمون هيكل الجسم كله إلى واحدٍ وعشرين قسما وربع قسم، وبذلك يعطون كل نسب المنظور، وهكذا عندما يتفق الصناع

فيمــا بينهم علــى حجم الأثر الفنى، يعملــون كلٌ على حده، ويهيئون حجم التمثال بانســجام دقيق إلى حد أن تفرّد أســلوب صناعاتهم كان مثار عجــب عظيم، وهكذا نُحت تمثال ســاموس طبقا لأصول الصناعة المصرية، فقد شــطر التمثال نصفين مــن قمة الرأس إلى العورة، وهذان النصفــان متماثلان من جميع الوجوه، ويقال إن هذا التمثال يشــبه فى معظم الوجوه التماثيل المصرية وقد امتدت يداه وانفرجت رجلاه.

هذه إذن عجالة كافية فى تاريخ مصر وما هو جدير بالذكر فيها وسنتبعها طبقا للخطة التى وضعناها فى مستهل الكتاب بما تلا ذلك من حوادث وأخبار مبتدئين بما حدث للآشوريين فى آسيا.

ملحق ١

المقاييس

القـــــــدم = ٠.٣٠٨٨ من المتر أو ١٢.١٦ من البوصة
ذراع[١] = ١ $\frac{١}{٢}$ قــدم = ٠٫٤٦٣٢ من المتر
بــــــاع = ٦ أقــــدام = ١.٨٥٣ مترًا
بـليثـــــرون = ١٠٠ قــدم = ٣٠.٨٨ مترًا
ستـــــــاد = ٦٠٠ قــدم = ١٨٥٫٣ مترًا
سخينـــــوس = ٦٠ ستـــاد = ١١٫١٢ كيلومترًا
رحلـة يـوم بـرًا = ١٥٠ ستـــاد = ٢٨ كيلو متر تقريبًا
رحلـة يوم بحرًا = ٧٠٠ ستـــاد = ١٣٠ كليو متر تقريبًا
رحلـة ليلة بحرًا = ٦٠٠ ستـاد[٢] = ١١١ كيلو متر تقريبًا

النقد

المــــــن = ١٠٠ دراحمة
طــــالنـــــط = ٦٠ منـــًـا = ٢٤٠ جنيهًا تقريبًا
وهذه كانت تستعمل بهذه النسب كموازين، والمن (وزن) = ٢ $\frac{١}{٢}$ رطلا.
وكان مستعملا كمكيال.

---

(١) الذراع المصرية تساوى ٠,٥٢٥ من المتر وهى تساوى بالنسبة إلى الذراع الأوليمبية ١٥ إلى ١٧ وهذه هى الذراع التى كان المصريون يستعملونها فى مساحة الأرض وقياس ارتفاع النيل.
(٢) وهذا يساوى خمس عقد بحرية تقريبًا. والستاد فى البحر يساوى نصف دقيقة عرض أو $\frac{٦}{١٠٠}$ من درجة العرض.

ملحق ٢
المدن المصرية التى وردت فى الكتاب

الرقم يشير إلى الفصل

اسم المدينة	اسم المدينة الآن
أرسنوى ٣٣	الإسكندرية
أكانثوس ٩٦	واحة سيوة
الإسكندرية ٥٠	قرية بالقرب من العطمانية
انطايوس٢١	جزيرة الفنتين
إلفنتين ٨	مصر القديمة
بابيلون ٥٦	مرسى مطروح
برايتونيوم ٣١	تل بسطة
بوباسطيس ٢٧	أبو سيربانا
بوسيريس ٨٥	تل الفرما
بياوزيوم ٥٧	؟
تونيس ١٩	أخميم
خمو ١٨	الأقصر
ديوسبوليس ١٥ ، ٩٧	العريش
رينوكولورا ٦٠	صالحجر
سايس ٢٨	طره
طرويا ٥٦	الأقصر
طيبة ١٥، ٢٣، ٤٥-٥٠، ٩٧	جزيرة فيلاى (ببلاق)
فيلادى ٢٢	

كروكودياوبوكيس ٨٩	مدينة الفيوم
ليونتوبوليس ٨٤	كوم المقدام
ماريه٦٨	على الشاطئ الجنوبى من بحيرة مريوط (أطلال)
منفيس ٥٠، ٥١، ٥٧، ٩٧	ميت رهينه
موممفيس ٦٦، ٩٧	أبو بيلو
ميندس ٨٤	تل الربع
نيلوبوليس ٨٥	دلاص
هليوبوليس ٥٧، ٥٩، ٧٤، ٨٤	المطرية

ملحق ٣
أسماء الآلهة

أسماء الآلهة الواردة فى الكتاب	مايقابلها فى المصرية القديمة
آيوللو ١٣، ١٧، ١٨، ٢٥، ٩٨	حورس (فى ادفو)
آثينا ١٢، ١٦	شو أو تفنت
أفروديتى ١٣، ١٧، ٩٧	هاتور
أنوبيس ٨، ٨٧	أنوبيس
أوزيريس ١١، ١٤–٢٧، ٨٥، ٨٧، ٨٨	أوزيريس
إيزيس ١١–١٧، ٢٢–٢٧، ٤٤، ٨٧، ٨٨	إيزيس
أيليثويا ١٢	نخبت
بان ١٨	من
بريابوس ٨٨	من

الفهرس الشامل